

في مهب الريح

بقلم: عادل الغضبان



دار المعارف

فی مَهَبِّ الرّیح



٢٢

فى مَهَبِّ الرّيح

عن : جان دجريف

بقلم : عادل الغضبان

الطبعة السادسة



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



١

طلعَ البدرُ وهو تمامٌ يختال في سمائه، ويرسلُ أشعته الفضية إلى صفحة البحر، ويغمرُ الشاطئ وقِممَ التِّلال الجاثمة على بُعْدٍ منه، بغلالةٍ من نوره الأبيض الجميل، فأمْتَعَ العينَ والفؤادَ بمنظرٍ ساحرٍ خَلاّب.

كان ذلك في بُقْعةٍ من بِقاعِ البحر الأبيض المتوسط، على مَقْرُبةٍ من مدينةٍ صغيرةٍ جميلةٍ تسمَّى «كانَ». وكانت منارةُ الشاطئ ترسلُ هى أيضًا شعاعها الجوَّال، فتقع خيوطه الذهبية على السَّبيكة الفضية التي بَسَطَها البدرُ، وزركَشَتْها أضواءُ المنارة بمختلف الصُّوَر والرسوم.

واشتركتْ نوافذُ المنازل القائمة قربَ الشاطئ، في تكملة الصُّورة النورانية، بما كان ينبعثُ منها من أضواء متألِّقة، كأنَّها النُّجوم المنيرة، في لوحٍ

امتدّتْ رُقْعتُه بين صفحة السماء وصفحات الأرض والبحر.

وأقبل على زاويةٍ من زوايا الشاطئ يَخْتٌ صغيرٌ مبسوطُ الشِّراع، فوقف فيها، وألقَى المِرْساة، وكان على ظهر اليخت بحارٌ يديرُ الدفَّة، وشابٌ استلقى إلى جواره يمتِّعُ ناظريه بجمال السماء، وشابٌّ آخر استندَ إلى حاجزِ السفينةِ، يُحَدِّق في صفحات الماء المتموِّجة المتكسِّرة، فالتفت فجأة يخاطب الشابّ المنطرحّ إلى ظهر اليخت وقال له:

– «ها نحنُ أولاءِ قد وصلنا يا «بطرس»!»

فنهض «بطرس» قليلاً وقال:

– «كم السّاعة الآن؟» فقال «جاك» رفيقه الذي بدأ الحديث:

– «إنَّها الساعة التاسعة... والمطعم الذي أريد أن أصْحبَك إليه يُقْفِل أبوابه في الساعة الحاديةَ عشرةَ، فهيَّا أسرع إذا شئتَ أن تَنْعمَ بلذيذ المأكل والمشْرَب».

وسار «جاك» و «بطرس» كلٌّ إلى مخدعه ليستبدلَ بملابس البحر ملابسَ المدينة.

كان هذا اليختُ ملْكَ الفتى «جاك»، وهو شابٌّ رياضيٌّ بهيُّ الطَّلْعة، ممشوقُ القامة مفتولُ العضلات، تلوحُ على قسمات وجهه ملامحُ القوّة والشباب النَّضير، وكان يَنْعَمُ بثراء أبيه الواسع العَريض، يُنْفِقُ منه عن سعة، ويقضي أوقاته مُتَمتّعًا بمباهج الحياة، ما بين أسْفَار واشتراكٍ

في مسابقات رياضيّة، ولم يكن –وقد بلغ السادة والعشرين من عمره– يُزَاولُ عملاً من الأعمال، فاجتمع له الفراغُ والشّباب والغِنَى، وشُغِلَ بهذه النِّعَم الثَّلاثِ عن أيّ عمل أو مَشْغِلةٍ أخرى، شأنَ العديدِ الأكبر من أبناء الكبرَاء الأثرياء.

على أنهُ مع ميله إلى اللهو والمرَح، ورغبته عن العمل، كان يتحلَّى بأخلاقٍ كريمة، وسريرةٍ صافية، قلّ أن يتحلّى بهاَ منْ كان على شاكلته من الشباب الأغنياء العاطلين.

فذلك اليختُ كان بعضَ دواعي لهوه، يتنقَّل به من شاطئ إلى شاطئ، ومن ثَغْرٍ إلى آخر من ثغور البحر، وكثيرًا ما صحب معه في رحلاته ونزهاته صديقه «بطرس» أو سواهُ من الأصدقاء، حينما تسمحُ لهم أعمالهم بالتنزُّه والمرَح.

ولما نزل «جاك» إلى مخدعه من اليخت ليغيِّر ملابسَه، رغبت نفسه في التَّدخين فعَمَد إلى غلْيونه وحشاه بالتَّبْغ، وفتح عُلْبة عِيدان الثقاب، فما وجد فيها إلا عودًا واحدًا، فأخرج من جيبه رسالةً قديمةً مطويّة فيه، ومزّقَ نصفَ صفحتها، وصنع منه لفافةً أشعلها بعود الثقاب الوحيد، ثم أشعلَ بلهبها التَّبغَ في الغليون، وأخذ يدخِّن مسرورًا.

ووقعَ نظرُه على النِّصف الثاني من الرسالة فقرأ فيه ما يلي:

«... يخيَّل إليّ أنك لن تحتاج يومًا إلى كَسْب رزقك من عملك، ولكن أمنيَّتي القصوى في الحياة هي أن أراك ناهضًا بعمل من الأعمال،

ولا تنسَ أن الثروة التي نتمتَّع بها كلانا إنما هي نتيجة جهاد شاقٍّ طويلٍ مستمرّ، ولا أكذبُ الله أنك لم تسبِّب لي قَطّ ما يحملني على الشَّكوى من سلوكك وأخلاقِك، غير أنه يُسعدني كل الإسعاد أن تلبِّيَ نداءَ الواجب، وتختار لك حرفةً تحْتَرِفُها في الحياة، ونصيحتي لك أن تُتمِّمَ دراسة الحقوق، ثم تُعِدّ الدكتوريّة فيها وتنخرط في سلْكِ المحامين.

وإن كنتَ تميلُ إلى مهنةٍ أخرى فأنت وشأنَك، ولكن عجِّل يا ولدي ولا تتوانَ، فقد أشرفتَ على السادسة والعشرين، ومن الضَّرَر البيّن أن يكونَ الإنسانُ عاطلاً من العمل في مثل هذه السنّ. واسلمْ لأبيك الذي يحبُّك.

ريمون أفريل»

قلّب «جاك» الورقة في يديه وقال يخاطبُ نفسه:

– «أجلْ... عليّ أن أختارَ المحاماةَ مِهنةً لي... لو أنَّني استجبتُ لميلي وهوايَ منذ سنواتٍ مَضَتْ، لاخترتُ البحريّة، ولكن لا بأس... لا بأس...»

فمزّق الرسالة قطعًا صغيرة وصَعِدَ إلى ظهر اليَخْت، ورمى بتلك القطع في البحر. وكان صديقه «بطرس» قد لحقَ به فهمَّ الفتَيان بالنُّزول من اليخت إلى المدينة، فطرق مَسْمَعَهما صوتُ تجديف، فالتفتا إلى جهة الصّوت، فرأيا «أرديسون» بحّار اليخت عائدًا إليه من زورق من

الزّوارق، ومعه عدد من الصحف وبعض المؤَن من الزاد قد يحتاجون إليها غدًا وبعد غد لو استأنفوا المسيرَ في الصّباح، فشكره «جاك» وطلب إليه أن يضعَ الصُّحف في مخدعه حتى يطالعَها هو وصديقه عند عودتِهما من المدينة.

واستقلّ الصّديقان الزّورق وسارا به إلى الشاطئ، ومشيا توًّا بعد ذلك إلى المطعم الذي يثقُ «جاك» بجوْدةِ طعامه وشرابِه، فأكَلا هنيئًا وشربا مريئًا، ثم جالا في بعض أنحاء المدينة، وعرَّجا على بعض مقاهيها ومشاربها، وعادا إلى اليخت قربَ منتصف الليل.

ودهش «جاك» لما رأى البحّار «أرديسون» ساهرًا ينتظرهما فابتدرَه قائلاً:

– «أحَلا لك يا «أرديسون» السهر تمتُّعًا بجمال الليل وسكونه أم شغلتْك بي الشّواغل فحرمتَ نفسك الرُّقاد والرّاحة انتظارًا لأوْبَتي؟ أما زلتَ تعُدُّني الطفلَ الذي ربَّيته وعرفته؟»

وكان هذا البحّار على ما ذكره «جاك» وفاءً وولاءً وحبةً وإخلاصًا له، فقد عرفه صغيرًا، ورعاهُ يافعًا، وسَهر عليه شابًّا، وكان من بين الرّجال الذين التحقوا بخدمة والدِه أكثرهم برًّا به ومحبةً له، فاختاره «جاك» بحارًا لسفينته منذ اشتراها، ولا سيما أنه بحّارٌ قديم.

فأجابَ الرّجل عن سؤالِ «جاك» وقال:

– «انتظرتك يا سيِّدي لأسلِّمَك برقيّةً ورسالةً تلقيتُهما في غِيابِك، لعل فيهما أمرًا عاجلاً».

ومدّ الرجُلُ يده بالبرقيةِ والرسالة، فتناولهما منه «جاك» ونزل هو وصيدقُه إلى مخدَعِه ليطالِعَا معًا الصّحف التي كان «أرديسون» قد جاءَهما بها.

وجلسَ الصّديقان كلٌّ إلى مقعدٍ وَثِيرٍ حولَ المنضدة، وأخذَ «بطرس» صحيفةً من الصُّحف وبدأ يُطالِعُها، في حين فضَّ «جاك» غلافَ البرقيّة وقرأها بلَمْحَةِ عين، ثم صاح صيحةً مدوِّيةً أليمة، فَهُرِع إليه صديقه مستعلمًا مستفسِرًا فوضع «جاك» البرقيّة على المنضدة وقال والحزن يقطِّع نياطَ قلبه:

– «لقد ماتَ أبي يا «بطرس» !»

ثم عمَد إلى الرسالة ففضّها وقرأها وقدّمها إلى صديقه، وقال وهو يرتجِف من رأسه إلى أخمَص قدميه:

– «خُذْ واقرأ!»

وكانت الرسالةُ من أمين سرّ والده وقد جاء فيها:

«عزيزي السيِّد «جاك»:

لستُ أدري كيف أستهلّ رِسالتي إليك، فنحنُ جميعًا في همٍّ مُقْعِدٍ مُقيم، وما من شكّ في أنك قد تسلّمت البرقيةَ ووقفتَ على النبأ الذي



يقصمُ الظهور، ولكان الكارثةَ أفدحُ خطبًا مما يُظَنّ، فوالدك قد انتحر، وأخشى ما أخشاه أن تكون أعمالُ مصرفه مشوبةً بالظنون والرِّيَب...»

فقرأ «بطرس» الرسالة كلها قراءةً عَجْلى، واضطرب لبعض عباراتها من مثل «فالودائع المعهود إليه فيها لا أثَرَ لها...» أو مثل «وقد انتهى إلىّ أن هناك أعمالاً قام بها ولا تخلو من التَّزْوير والتَّدْليس...» فصاح «بطرس» قائلاً:

– «وارحمتاهُ لك يا «جاك»!» فقال «جاك» جازعًا حزينًا:

– «وما العمل؟! وما العمل؟!» فقال «بطرس» بعد أن نظر إلى ساعته:

– «عليك أن تستقلَّ القطار الذي يبرحُ المدينة بعدَ نصفِ ساعة إلى «باريس»، ويصل بك إلى مدينة «ليون» في الساعة الرابعة من مساء غد، فعرِّج هناك على والدي، فمثل هذه الأمور تحتاج إلى رأي محام خبير قدير مثله... أمَّا اليخت فلا تكترثْ لشأنه، فسوف أسيرُ به إلى مدينة «نيس» معتمدًا في ذلك على مساعدة «أرديسون» ثم ألحق بك إلى «باريس» فهيّا أسرع فليس في الوقت سعة...»

وخفَّ الصديقان إلى محطة سكة الحديد وارتمى «جاك» إلى مقعده من المركبة، فصفر القطار وبدأ يتحرك، فَودّع «بطرس» صديقه وشدّ على يده مواسِيًا مشجعًا، وبقي واقفًا على رصيف المحطة حتى توارى القطارُ عن الأنظارِ، فعاد إلى اليخت وهو يرثي لحال صديقه، ويُكْبِرُ

هذه النّكبة التي نكبَهُ بها الدهر، ففي غمضةِ عيْن انقلب «جاك» الفتى الثريّ إلى شابّ فقير مُدقع، لا عملَ له ولا حرفة يكسبُ منها رزقه.

لم يعرّج «جاك» على والد صديقه «بطرس» في مدينة «ليون» بل تابع سفره إلى «باريس» ليُلمّ سريعًا بأخبارِ النكبة وأسبابها، وليقف على الحواشي منْها والذُّيول، فعلم أن «البارون أفريل» والده قد استسلم في الحقبة الأخيرة إلى المضاربَة، وقام بأعمالٍ تُعَد خيانةً للأمانة.

وعرضت الصُّحف للحادث في أوّل الأمر بكلماتٍ مهذّبةٍ لا تخْلُو من التلميح والتورية، ثم أفاضَت فيه علانيةً، فانتشرت الفضيحةُ في الأندية والمجالَس وحلقات الأعمال، وتناقلتها الألسنةُ والشِّفاه.

وكان والده حتى يوم انتحاره يتمتّع بسُمْعَةٍ طيّبة في جميع الأوساط والبيئات، لما أثر عنه من كفايةٍ في الشؤون الماليّة، وغِنًى واسع، وأخلاق كريمة. فكان عملاؤه يَفدون إلى مصرفه، ويستودعونه أموالهم وهم واثقون كلّ الثّقة بمقدرَته واستقامَتهِ، غير أن مُضَارَبَاته قد أتتْ على جميع تلك الودائع وجعلتها أثرًا بعد عَيْن.

وبدا للخبراء الذين انتدبتهم المحكمة لمراجعة حسابات المصرف، أن ثَمَّةَ كثيرًا من الأخطاء في التدوين والتّسْجيل، ثم تكشفتْ لهم تلك الأخطاء يومًا بعد يوم أنها طرائقُ للنصف والاحتيال.

وعرف هؤلاء الخبراء مما فحصوه وراجعوه من أوراق ووثائق، أن "البارون أفريل» كان قد مُنِيَ بخسارةٍ فادحة، في إفلاس مصرفٍ من

المصارف الأمريكية، كان له فيه مبالغ طائلة، فحاول أن يسدّ ذلك العجز بوسائل شَتَّى فما استطاع، فعمد إلى المضاربة مجازفًا بثروته الخاصة، فابتلعتها المضاربة، فاستعان بما لديه من ودائع الناس، فذهبت هذه أيضًا هباءً منثورا.

وضاقت الدنيا في عينيه، فمالَ إلى المسكرات يواسي بها نفسه، ولكنَّها كانت القاضيةَ عليه.

وما برحت هذه حالة حتى علم عميلٌ من عملائه، أن الأوراق المالية التي استودعه إياها قد رهنها «أفريل» لدى مصرف من المصارف، ضمانًا لقرض اقترضه منه، فأبلغ العميل شكواه إلى النيابة فأمرت بالتحقيق.

وأيقن البارون أن أمره سنفضح فذهب إلى بائع من باعة السِّلاح، واشترى منه مسدّسًا وعاد به إلى مكتبه، وعكف علىً زجاجة خمرٍ لديه فأفرغها كلها في جَوْفه، ثم صوّبَ مسدسه إلى أحد صدغيه، وشدّ الزناد فخر صريعًا مهشّم الدِّماغ.

واستبان للمحقّقين أن القتيل كان قد ألّف ثلاثَ شركات وهميّة تقوم كلّها على النَّصْب والاحتيال، ولا سيما الشركة الأخيرة التي زعم أنها لاستغلال مناجم كبريت في «إسلندة» وقصّة هذه الشركة أن البارون لمّا نال منه الإرهاق كلّ مَنَال، استمع لنصيحة طبيبه، ورحل يرتاح ويستجمّ في شاطئ من شواطئ «نرمنديا» فعرف هناك رُبَّانًا عجوزًا من ربابنة السُّفُن، حدّثه عن مناجم كبريت زارها في «إسلندة» وأخبره

أن الطريقة التي يستعملها أهل «إسلندة» في استخراج الكبريت طريقةٌ بدائيّة، في حين أن تلك المناجمَ لو أُحْسِنَ العملُ فيها لدرّت أرباحًا طائلة...

حفل البارون بما سمع، ودارت بِخَلَده فكرة معينة، فلم يكد يعودُ إلى «باريس» حتى اشترى صحراء واسعة من صحاري «إسلندة» الجديبة الماحِلة، ثم ألَّفَ شركة خاصّة باستغلال مناجم الكبريت فيها، وطرح أسهمها في الأسواق فكان ذلك الربان أول المكتتبين فاكتتب بخمسين ألف فرنك كانت كلّ ما ادّخره في الحياة.

وحينما طارت أنباء الفضيحة إلى أنحاء البلاد، هُرِعَ الربان العجوز إلى «باريس» لينقِذَ من ثروته ما يمكن إنقاذه، فحزّ في صدره أن يجد ذخيرة العمر قد ذهبت بددًا، فما شَفِق به أحد ممن شكا إليهم حاله إلا الفتى «جاك»، فقد عزّت عليه حالُ الرجل، ولكن لا حَوْل له ولا طَوْل في ردّ المأساة.

وبذل المحقّقون وافرَ الجهد حتى عثروا على الرجل الذي ابتاع منه البارون تلك الصحراء القاحلة في «إسلندة» فعلموا منه أنه باع تلك الصحراء بخمسة آلاف فرنك ليس إلاّ، وأنه صاحب سفن يتّخِذها لصيد الأسماك في تلك البِقاع، ولما سُئِل كيف حصل على تلك الأرض قال إن الحكومة الإسلندية أقطعتْه إياها فضلةً عن مزرعةٍ اشتراها بالقرب منها، وإن فيها صخورًا تهديه رؤيتها إلى السواحل الأمينة.

سمع الرّبان العجوز تلك القصّة فازداد حزنًا، وعاد إلى موطنه، وما لَبِثَ أن مات فيه غمًّا تاركًا ابنةً وحيدة ستضطرها قسوةُ الدهر إلى التماس الرزق من جهد النفس وعَرَق الجبين.

شقَّ على «جاك» أن يعلم بمصير ذلك الربان العجوز، ولكن أكان هو أحسن حالاً من تلك الإبنة التي خلَّفها ضحيّة والده؟ ماذا يعملُ الآن في الحياة؟ وأيّ عملٍ يزاول وليس في يده شهادة عليا تعينه على العمل مدرِّسًا في إحدى المدارس؟ وكيف يواجهُ الحياةَ بعد إذْ كان قد تَعَوّد البذخ والتَّرَف ورفاهة العيش؟ كلُّ ما يملك من أسباب النضال في الحياة صحة جيدة وجسم رياضي ينبضُ بالقوة والسلامة...

خرج «جاك» ذات يوم من غرفة قاضي التحقيق في صحبة البحّار الذي اشترى منه أبوه الصحَراء، فتأبّط هذا ذراعه، وأخذ يعزِّيه ويواسيه ويقول له:

- «هوّن عليك يا فتى، فلستَ أنت المسئول عن كل ذلك... تعال نتناول طعامَ الغداء معًا».

فقبل «جاك» الدّعوة، ولما فرغا من تناول الطعام قال له البحّار واسمه «هارفر»:

- «إن لك عندي عملاً تستطيع أن تقوم به، إنه عمل كتابيّ في المكتب الذي أملكه ويقوم على تدوين دَخْلي وخَرْجي، فإن ساءك مثلُ

هذا العمل ورأيتَ من نفسك القوة على تحمُّلِ أهوال البحار، فانخرطْ في زُمْرة بحارتي، واقض عدّة سنوات متمرّنًا على صيد السمك وقيادة السفن، فإذا نجحت في ذلك نصّبتُك ربّانا على إحدى سفني، ثم جعلتُك شريكًا لي، فإني وحيدٌ في الحياة، ومحتاجٌ إلى عقلٍ فتيّ ذكيّ يعاونني، ولكني لا أخفي عنك أن البداية ستكون شاقة عسيرةً، فهل ترضى بما أعرضه عليك؟»

فرضي «جاك» بعرض الرجل، فشرب كلٌّ نخبَ الآخر دلالة على الرِّضى والقَبُول.





٢

قضى «جاك» خمسةَ عشرَ يومًا نظَّم فيها شؤونه، وجمع قليلاً من المال في جيبه، ولحق بالبحّار «هارفر» في أحد الثغور وذهب يقابله في المكتب الذي اتخذه مقرًّا له في المدينة.

فاستقبله «هارفر» مسرورًا وقال له:

– «يسرُّني أن أراك يا بني، وسوف تركب البحر غدًا، فهل لديك الملابس الخاصة بالبحار؟!!» فقال جاك:

– «نعم لديَّ كلُّ ما يلزمني».

وكان «جاك» قبل أن يبيع يخته، قد أرسل إلى «أرديسون»

يطلب منه أن يبعثَ إليه بجميع ملابسه التي تركها في اليخت، فلما رآها «هارفر» قال:

– «إنَّها ملابسُ جيدة وإن مالت إلى الأناقة والتَّرف، ولا تحسبَنَّ أنها ستظلُّ أنيقةً فخمة، فالعمل سيمزِّقها ويلطِّخها بالوسخ، ولكن لا بأس... أنا الآن مشغولٌ بتعبئة الأسماك، فاقض ساعةً أو بعض ساعة جائلاً في أرجاء المدينة، ثم اذهب إلى السفينة التي ستركبها وتعمل فيها، وتعرَّفْ إلى مَنْ فيها، وعُدْ إليّ ريثما أنتهي من عملي... سترى السفينة وستعجبك... إن اسمها «ديك الشمال»».

وقهقه الرجلُ ضاحكًا، ودفع بالفتى «جاك» إلى الباب، فاجتازه وذهب يطوفُ بأنحاء المدينة، حتى إذا ملّ من الطواف، مضى قُدُمًا إلى الميناء وأجال طرفه في السفن الراسية فيه، فعثر على «ديك الشمال» فانقبضت نفسه لمرآى تلك السفينة العتيقة، بل لمرآى ذلك الديك المجرد من ريشه، فما كان يبدو على مظهر السفينة إلا الحقارة والاتِّضاع، فضلاً عن رائحة السمك المنبعثة منها.

صَعِد «جاك» إليها فلقيه فيها أوّل من لقيه، غلامٌ يعمل خادمًا فيها، ويرتدي أحقر الأسْمال، وكان يدخِّن التبغ في غليونه ويبصقُ من حينٍ إلى آخر على سطح السفينة، فاشمأزّ «جاك» وصعب عليه أن يقضي عدّة ساعات في مثل هذه الحقارة والقذارة، فوزن الأمر في نفسه وبدا له البقاء في تلك السفينة ضَرْبًا من المحال، فاستدار على عقبيه،

وهمَّ بالعودة من حيث أتى معتزمًا في قرارة نفسه أن يطلب من «هارفر» أن يعهد إليه في العمل الكتابي الذي كان قد عرضه عليه أولاً، فلمحه الغلام وخفّ إليه مسرعًا فقال له «جاك»:

– «هل الرّبان هنا؟» فقال الغلام:

– «كلا». فقال «جاك»:

– «ومساعده أهو هنا؟» فقال الغلام مستغربًا:

– «ماذا تقول؟» فقال «جاك»:

– «أسأل عن مساعد الربان أهو هنا؟» فقال الغلام وهو مستمرٌّ في التَّدخين:

– «ليس على السفينة هذه مساعد رُبّان».

فضاق «جاك» بوقاحة الغلام ولهجته الجافة، وهو الذي تعودّ أن يأمر فيُطاع بلا تردد فقال متضايقًا:

– «هل في السفينة مَنْ ينوب مَناب الرُّبّان؟»

فلم يجب الغلام على السؤال بل مشى خطوتين إلى داخل السفينة وصاح:

– «يا يوسف! هنا رجل يسأل عنك».

فدوّت من داخل السفينة زمجرةٌ أعقبها وقعُ أقدام على السلّم الداخلي للسفينة، ولاحت على الأثر فوق حاجزي السلم كفّان غليظتان موشومتان

بالشَّعر، وبدا بعدهما رأسٌ ضخْم كرأس الوحوش ما عَتَّم صاحبه أن وصل إلى سطح السفينة وخطا فيه إلى «جاك» خطوات ثقيلة.

كان القادم أقصر قَامةً من «جاك» وأضخمَ مَنْكِبًا، وأشبه بالثيران منه ببني الإنسان، فقال يخاطب «جاك» وهو ينظر إليه نظرات وحشيَّة مرتابة:

– «أأنتَ مَنْ يسأل عني؟» فقال «جاك»:

– «أريدُ أن أحدّث رُبَّان السفينة أو مَنْ ينوبُ عنه».

فقطَّبَ الرجل حاجبيه الأصفرين وقال:

– «أنا رئيس الصيد فماذا تريد؟» فقال «جاك»:

– «إني قادمٌ من قِبَل السيد «هارفر» وسأبحر معكم صباح غد».

فبصَقَ الرجل على سطح السفينة وقال:

– «لسنا على هذه السفينة في حاجة إلى فتيان «باريس» يُعَرْقلون أعمالنا. إن سفينتنا ليست يخْتًا للنزهة... حسْبُ الغرباء الأجانب أنهم يسكنون منازلنا... قل هذا للسيد «هارفر».

فقال «جاك» بلهجةٍ هادئةٍ مؤدبة:

– «أنا لا أبحِر معكم سائحًا يلتمس المتْعة والنزهة، بل بحارًا يقاسمكم العمل».

فضحك الرجلُ ضحكة وقحة، واتَّقدت عيناه ببريق السخرية وقال:

– «لا تهزأ بي أيُّها الأبله! اغْرب من وجهي... لعلّك أحد الصحفيين جاء يتقصَّى أخْبارنا... إن كذبك جليٌّ واضح يا فتى، فأسْرِعْ في الانصراف وإلا أمسكت بعنقك ورميتك في البحر!»

فلم يُحِرْ «جاك» جوابًا بل أخرج غليونه من جيبه وحشاه بالتَّبْغ في حين كان الغلام ينظر إليه فاغرَ الفم مدهوشًا، ثم مضى «جاك» يجلسُ فوق بعضِ الأثقال وهو يقول:

– «اطمئنّ يا سيّدي فسأخبر السيد «هارفر» كيف تطاع أوامره على هذه السفينة... أما إن شئتَ أن ترميني في البحر فها أنا ذا على مقربة منك، فنفِّذ وعيدك لو استطعتَ إلى ذلك سبيلا».

فأخذ الرجل الوحش يقذفُ منْ فِيه السِّباب والشتائم، وهجم على «جاك» فاستقبل «جاك» هجمته برفع يديه، فظن الوحش أن الفتى يهمّ بضربه، فبأسرع من تردّد الطرف طوّق بيديه خصر «جاك» وضغط عليه ضغطًا شديدًا، وحاول أن ينتزعَ الفتى الباريسِيَّ من مكانه.

على أن «جاك» لم يكن قد رفع يديه ليكيل الضَّربات للهاجم عليه، وإنما رفعهما ليَتخِذَ من خصمه موقفَ المصارع المدافع، فما كاد الصياد ينهض عنه محاولاً أن يقتلعه من مكانه، حتى كان «جاك» قد وضع إحدى يديه تحت ذَقْن الهاجم، ومَدَّ الآخرى إلى قفا عُنُقه، فأصبح رأسُ خصمه محصورًا بين كفَّيْه وعُرْضةً للضغط العنيف فكادت تزهق روح الصيّاد، فتألم تألُّمًا شديدًا، واضطّر إلى تَرك خصر الفتى لينتزع

من حول عنقه يدي «جاك» الناعمتين وكأنهما قطعتان من الحديد، فما مكّنة «جاك» منهما، بل انفلت منه وأخذ يسدّد إلى وجهه الضربَات القوية حتى كَاد فكاه يتراخيان ويندمج فكٌّ بفكّ.

تراجَع الصياد ليستجمع قُواه ويستعيد تنفُّسَه، ونهض «جاك» ليتدارى الهجمة الثانية، فوقف الرجلان وجهًا لوجه، وهما يلهَثان من التعب. كان «جاك» قد كسب الجولة الأولى، ولكنه أدرك أنه مغلوبٌ لا محالة لو استَمرَّ الصِّراع بينه وبين ذلك الوحش، فشاء أن يُذْهله ويُرْبكه فهجم عليه هجومًا خاطفًا، وكال له بين حاجبيه ضربةً رنَّحَتْه، ولكن سرعانَ ما استعاد الصياد قواه، وهجم على «جاك» ممدودَ اليدين يريد أن يعصُرَ بهما عُنقه عَصْرًا، فاستعان «جاك» بحضور ذهنه وشجاعته وحِيَله الرياضية، فأمسك بإحدى اليدين الممدودتين ولواها إلى الخلف ليًّا شديدًا، واستدار معها في خِفَة الطائر، ففقد الصياد توازنه، وسقط على وجهه إلى سطح السفينة، فسُمِع لسقوطه دويٌّ شديد، فسارع «جاك» إليه وثنى رُكْبَتَيْه فوق ظهر الصياد العريض، وأمسك بعنقه حتى كاد يكتم أنفاسه، فحشْرَج الصياد طويلاً، وارتمى برأسه إلى سطح السفينة كمن فَقَدَ الوَعْي والرُّشْد.

وكان غلامُ السفينة يشاهد ذلك الصِّراع القاتل وهو لا يُبْدي حَراكًا، فعجب «جاك» من تلك السفينة ورجالها، ومما يتَّصفون به من عَدَم الاكتراث، فها هو ذا غلامٌ منهم يشهد معركةً هائلة وكأنه في عالمٍ

آخر، فلما رآه يقتربُ من جسم الصياد الممدَّدِ على أرض السفينة غير حافلٍ ولا مُبالٍ ازداد «جاك» دهشةً من ذلك الخلق البارد الشبيه بجبل من جبال الثلج، ولكنه اهتَزّ لسماع الغلام يقول له في غير ما جَزَعٍ ولا اهتمام:

– «لقد دَقَقْته دقًّا جميلاً...»

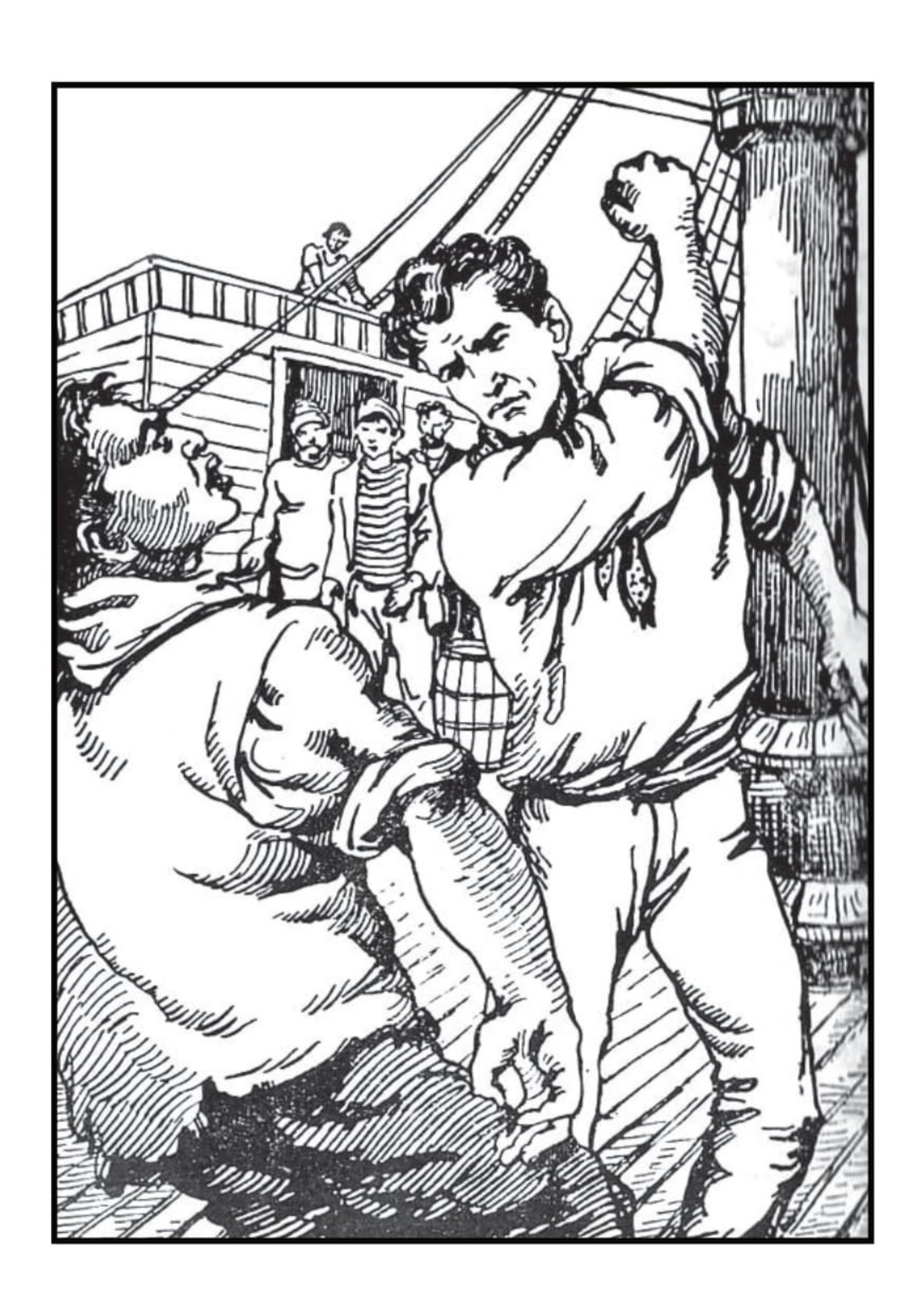
فنهض «جاك» يترنَّح كالشَّارب الثَّمِل، فمسح يديه المبللتين بالعرق، وبلغ منه الهمُّ كلَّ مبلغ، فود لو يُطلق لعَبراته العنان.

ومال الغلامُ على الصياد المنطرح على أرضِ السفينة، وأداره بحيثُ يستلقي على ظهره، ثم ساعده «جاك» فجرّا ذلك الصَّريع إلى ناحية من السفينة، وأجلساه مُسْنِدَيْن ظهره إلى بعض الأحمال، ففتح الرجل عينيه ووقع نظره على «جاك» فاعتدل في جِلْسَته، ومسح الدّم عن فهم بِظَهْر كفه، وعاد ينظر إلى «جاك» وقال له:

– «عليك لعنة الأبالسة أيها الفتى! إنك لتُحْسِن الضَّرْب والصِّراع!»

وحاول الصيَّاد أن يقف على قَدَميْه، فعانى شديدَ العناء في ذلك، فمد «جاك» له يده مساعدًا فتظاهر أنه لم يرها، ثم تحامل على نفسه فوقف ومضى إلى زاوية من السفينة، وأخذ دلْوًا من خشب مربوطةً بحبل، فأدلاها إلى البحر وملأها بالماء، ثم سحبها إليه وأخذ يغسلُ وجهه ورأسه ويديه.

وهدأت أعصاب «جاك» فأسِفَ على ما فعل، وتحيّر في الحكم



على أخلاقِ الناس في تلك البِقاع، فقد شهد المعركةَ بضعة عشرَ نَفَرًا من رجال السفن المجاورة، فكانوا كغلامِ السفينة جامدين في أماكنهم، غير مكترثين لما تقع عليه أعينهم، كأنما يَشهدون أمرًا غير ذي بال.

وبينما كان «جاك» يردِّد في نفسه مثل تلك الخواطر، سمع غلام السفينة يصيح مخاطبًا أولئك الناس الواقفين ينظرون إليه من السُّفُن المجاورة:

– «يوسف منزي» رئيس الصيد عندنا تلقَّى درسًا قاسيًا».

أما «يوسف منزي» هذا فبعد أن غسل وجهه ورأسه ويديه، اقترب من «جاك» وقال له:

– «صَحَّ إذن ما قلت... فستبحر معنا غدًا، وتنخرط في زمرة بحارة السفينة». فقال «جاك»:

– «أجل». فقال «يوسف منزي»:

– «احرص إذن على جلدك... ولسوف نعاود الكرَّة ونحن في عرضِ البحار، ولن أدعك تفلت من يدي».

قال هذا وتوارى عن نظر «جاك» ذاهبًا إلى بعض شأنه في قلب السفينة.

فهزّ «جاك» رأسه وقال في نفسه، لقد كان «هارفر» على صَوابٍ حين نبَّهني إلى أن البداية لن تكون في جمالِ الورد والرّيحان... ومضى إلى غليونه وكان قد تركه في جانبٍ من جوانب السفينة، فالتقطه وأشعله

وأخذ يدخّن... ثم نادى الغلام وقال له بلهجة الآمر:

- «ما اسمك؟» فقال الغلام:

- « «جيّوم»... ويسمّونني في السفينة «جيّو».» فقال «جاك»:

- «وأين ربّان السفينة؟» فقال الغلام:

- «إنه في المدينة». فقال «جاك»:

- «وهذا الذي صارعته ما اسمه؟» فقال الغلام:

- «اسمه: «يوسف منزي»..» ثم قال في صوت منخفض:

- «لا أوَدُّ أن أكون مكانك حينما نتوغّل في عرض البحار... ولا سيما بعد الذي حدث بينكما... لقد غضب يومًا على بحّار من البحارة فرماه في البحر... كلُّ الناس تخافه وترهب شرَّه...» فقال «جاك» هازئًا:

- «كن مطمئنًّا فإني أعرف كيف أدْفَعُ أذاه... ومَنْ معكما أيضًا في السفينة؟» فقال الغلام:

- «رجلان آخران». فقال «جاك»:

- «وما اسم ربّان السفينة؟» فقال الغلام:

- « «منزي» وهو والد «يوسف منزي» وإنه ليخاف من ابنه كما يخاف من الشَّيطان الرَّجيم».

رأى «جاك» أن حياته على ظهر السفينة لن تكون حياةً هادئة مستقرّة، ولكنه تذَكَّر وعدَ «هارفر» وكيف منَّاه بأن يُصبح يومًا شريكه، فآلى على نفسه أن يجابه الأخطار بما يملك من قوةٍ وبأسٍ وفكرٍ، لعله يصل بعد ذلك إلى حياةِ الهدوء والاستقرار.

وانتهى «جاك» من تفكيره، وذهب إلى السلّم الموصل إلى قلب السفينة، وصاح بأعلى صوته:

– «يا «يوسف منزي»! يا «يوسف»!»

فأجابه المنَادى قائلاً:

– «ماذا تريدُ منّي أيضًا؟» فقال «جاك»:

– «أريدُ أن أنْهِيَ إليك بكلمةٍ قصيرةٍ فتعالَ إليّ».

فمد «يوسف منزي» رأسه، وتَطلَّع إلى «جاك» وهو واقفٌ عند فتحة السلّم فقال له «جاك»:

– «أنا راحل الآن وسأعودُ صباحَ غد... وقد أحببتُ أن أنذرك بالإقلاع عمَّا أنت عليه من سوء الخلف، فإن مددتَ يدك في المستقبَل إلى أبْعَدَ مما يجب، أو رفعتَ صوتك إلى طبقةٍ لا تليق، فسوف تندم أشدَّ الندم... هذه كلمتي إليك ولك أن تعودَ بعدها إلى عملك».

فعاد «يوسف منزي» إلى حيث كان، وغادر «جاك» السفينة إلى لقاء صاحبها «هارفر» ولكنه عرّج في طريقه على بائع أسلحة،

فاشترى منه مسدسًا بستين فرنكًا من الفرنكات الخمسمائة التي كانت في جيبه.

وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، كان «جاك» يتمشّى على رصيف الميناء في طريقه إلى السفينة «ديك الشمال» فوصل إليها بعد قليل حاملاً حقيبته، وكان «يوسف منزي» في تلك الأثناء مشغولاً بتنظيف مَرْأب السفينة، في حين كان الغلام «جيّو» منهمكًا في غسل بعض الأطباق، فتوجّه «جاك» إلى فتْحة السلم الداخلي للسفينة، وبدأ ينزله درجةً درجةً، فتقزّزت نفسه من الرائحة القَذِرة المتصاعدة من جوف السفينة، كما عافت عينُه ما وقعت عليه من أقذارٍ متراكمةٍ هنا متناثرةٍ هناك.

وسار «جاك» بعد ذلك يتفقّد مكانًا يضع فيه حقيبته وأمتعته، فوجد غرفةً للنوم ضيِّقة، نصبت فيها أسِرّة أربعة في كل جانب منها سرير فوقه سرير، فطرقْ مسمَعَه صوتُ غطيط ينبعثُ منها، ثم انقطع الغطيطُ على وقع أقدامه، فرأى وجهًا قد برز من تحت اللّحاف، فحيّاه «جاك» تحيّة الصباح، غير أن الرجل لم يجب عن التحية بل بادر «جاك» قائلاً:

– «ماذا تريد؟» فقال «جاك»:

– «أين سريري من هذه الأسِرّة». فقال الرجل:

- «السّرير الذي تحت سريري هو لغلام السفينة، والسرير الأدنى من الجانب الثاني ينام فيه «يوسف منزي»».

فوضع «جاك» حقيبته في زاويةٍ من زوايا الغرفة، وعكف على سريره يرتِّبه وينظفه، ثم خرج من الغرفة فلمحه «يوسف منزي» فلما اقترب منه قال له:

- «لقد صّمَّمتَ مع ذلك على المجيء والإبحار معنا». فقال «جاك» بلهجةٍ هادئة:

- «كما ترى... فعيِّنْ لي عملاً أقوم به». فقال «يوسف منزي»:

- «خذ هذه الدّلو واملأها بالماء مرة بعد أخرى، واغسل الجانب الثاني من مَرْأب السفينة».

فصعد «جاك» إلى غرفة النوم، وبدل ملابسه وعاد يقوم بالمهمة التي عهد فيها إليه، واستمرَّ ساعتين ينحتُ أرض المرأب ويفركها بالفِرْجَوْن، ويغسلها بالماء ثم ينشّفها، ويصعد بالدلو إلى سطح السفينة فيرمي إلى البحر بما فيه من ماءٍ وسخ، حتى انتهى من عمله وشعر بأوصال جسمه تتمزّق كما لو وقع من قمَّة جبل عال.

وكان غلامُ السفينة يساعده في عمله، فلما فرغ منه صَعِدَ يبدل ملابسه، وغادر هو والغلام السفينة إلى بعض الدّكاكين فاشترى فراشًا وملاءةً، وشوكةً وسكينًا ومِلْعَقَة، وصَحْنًا وكوبًا من المعدن، وعاد بكل

ذلك إلى السفينة فوضعه في خزانته.

وشعر «جاك» أن غلام السفينة قد بدأ يُسْلس له القياد فتناول الإفطار معه ثم صعدا معًا إلى سطح السفينة ليملأ رئتيه بهواء البحر النقيّ.

ورأى «جاك» أن سطح السفينة قَذِرٌ مُهْمَل فعاد ثانية إلى ارتداء ملابس العمل وقام هو والغلام بتنظيفه، واشتركا بعد ذلك في لفِّ الحبال وترتيب الأشْرِعة، وطَرْح كل ما لا حاجة إليه. وما إن فرغا من عملهما حتى لحق بها «يوسف منزي» ورائحة الخمر تنبعثُ من فهمه، فبصق على سطح السفينة وركل بقدمه لَفّةً من الحبال فانفردتْ ورجعَ من حيثُ أتى.

فلم يَفُه «جاك» بكلمة واحدة، ومضى إلى الحبال فجمعها وأعاد لَفَّها بنظام وعناية، ومضى يجلس في زاويةٍ من زوايا السطح.

وما هى إلا دقائق قليلة حتى صَعِدَ «يوسف منزي» إلى السطح ثانيةً، واتجه إلى مخدع والده وحرص في سيره أن يركل مرة أخرى لفّة الحبال.

وجمع «جاك» الحبال وأعاد لفَّها ثم وضعها عند مدخل السلم المؤدِّي إلى قلب السفينة، ومضى إلى قضيب من الحديد انتزعه من مكانه، وتسلَّح به ولبث ينتظر «يوسف منزي».

فخرج «يوسف منزي» بعد قليل من مخدع الربان، فناداه «جاك»

وقال له وهو يشير إلى لفَّة الحبال:

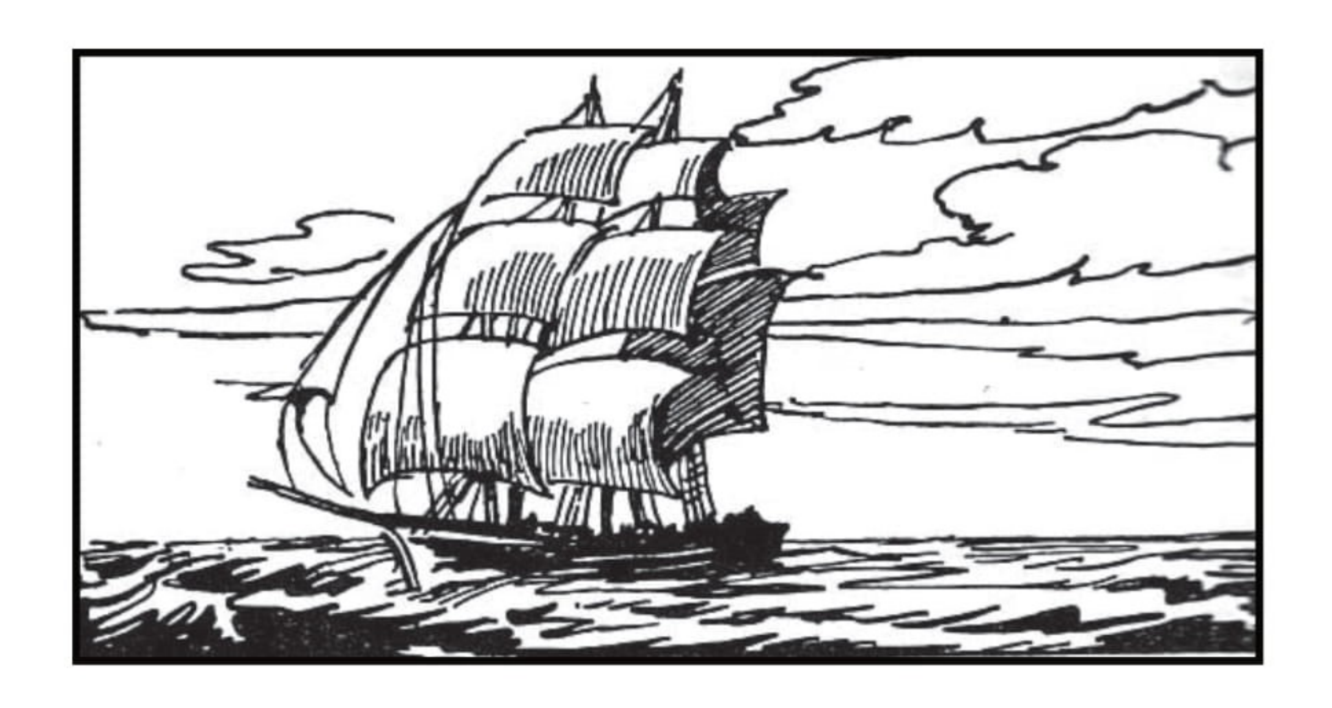
– «أترَى هذه اللفة من الحبال؟... فلئن والله مسَسْتها لأؤدِّبَنَّك شرّ تأديب».

فنظر «يوسف منزي» إلى «جاك» المرفوع القامة، وإلى قضيبِ الحديد في يده، ثم إلى تلك اللفَّة من الحبال فتخطّاها ونزل السلَّم.

وهكذا كسب «جاك» الجولة الثانية

وقُبَيْل الغروب أقلعت السفينة وجرت تمخُرُ عُبابَ الماء.





٣

قُدِّر للرحلة أن تستمرّ أربعة أشهر، فقضاها «جاك» صابرًا مصابرًا، ولقي فيها أشدَّ أنواع العَنَت والعَناء.

ولئن كان «يوسف منزي» قد استفادَ من الدروس الأولى التي لقَّنه إياها «جاك» فأصبح لا يجازفُ باستعمال العنف والغلظة، لقد كان جوارُه وزِمالتُه مع ذلك ليس مما يرتاح إليه شاب مؤدب مهذب مثلُ «جاك».

أما الربان «منزي» فقد كان عجوزًا يرتجف فرقًا من ابنه، فأساء معاملة «جاك» في بدء الأمر، ولكنه عاد إلى الحسنى عندما رأى ذلك

«الباريسي» ملمّا إلمامًا وافيًا بشؤون الملاحة والبحر، فاستفاد من علمه وعهد إليه في ضبط حساب الجوّ وما إلى ذلك.

وكانت السفينة متّجهةً إلى الشمال من «إسلندة» وسائرة إلى أصْقاع باردة الجو والمُنَاخ، فأثر البرد في «جاك»، ولم يتعوّده إلا بعد فترة من بدءً الرحلة، وكان أشدّ ما يؤثر في جسمه ونفسه ذلك الضّباب الذي ينتشر في الجوّ، فيلفّ في غلالته البحر والسُّفن, فكان كلما توارت السفينة في طَيَّات الضّباب، توقّع أن تصدمها سفينة من السفن الضخمة فتحطِّمها وتبعث بها إلى أعماق المياه.

وكم من مرةٍ ندم فيها على أن آثَرَ العمل في السفينة على العمل في مكتب «هارفر»، ولكنه تمرّس بأهوال البحر بعد شهر واحد، وأصبح يلتذّ بالتغلُّب على مصاعب البحر وأهواله، ويسرّ كلَّ السرور في إحباطِ حِيَل الأسماك واصطيادها. وكانت مُتعتُه الكبرى عندما ينالُ التَّعبُ من أجسام زملائه، ويأخذُ الكَرَى بمعاقد أجفانهم، أن ينوبَ عن الربّان ويقود السفينة إلى غايتها.

انتهت الرحلة وعاد «ديك الشمال» إلى المرفأ الذي أقلع منه فتولى البحّارة تفريغ الأسماك التي اصطادوها، أما «جاك» فلبس ملابس المدينة وكان قد هجرها مدة أربعة أشهر وخفّ سريعًا إلى لقاء «هارفر» فاستقبله هذا باسمًا مرحِّبًا وسأله قائلاً:

– «أأعجبتك الحياةُ فوق ظهر البِحار؟» فقال «جاك»:

– «إنها حياة متعبة ثقيلة، ولكني مع ذلك مصمِّم على العودة إليها».

فشدّ «هارفر» على يده وقال له:

– «نِعِمّا أيها الفتى الباسلُ الشُّجاع... اذهب الآن وتسلَّم نصيبك من الرّبح... إن الرحلة كانت موفَّقة سعيدة... وسنتعشى معًا في هذا المساء، وعندئذ تقصّ عليَّ ما تريد».

وفي المساء تعشّى «جاك» و «هارفر» في مطعم أنيق من مطاعم المدينة، وقضيا معًا سهرةً لطيفة.

وبعد أسبوعين قام «جاك» برحلة ثانية إلى بحار «إسلندة» على نفس السفينة التي ركبها في الرحلة الأولى ومع الزملاء أنفسهم.

وتغيَّر موقف هؤلاء الزملاء منه تغيرًا شديدًا، فأصبحوا يخصونه بالمزيد من الودّ والإجلال. أما الوحش «يوسف منزي» فحاول على الرغم منه أن يتلطف هو أيضًا معه، غير أن «جاك» ما كان ليطمئن إليه، فقد لاحت له نظراته في بعض الأحيان تقدَحُ بشرر الحقْد والكراهية، فارتاب به وكان منه على حَذَر.

واستيقظ «جاك» ذاتَ صباح مرتاح الجسم نشيطَ البدّن، فصعد إلى حيثُ عجلةُ القيادة ليقوم بنوبته في قيادة السفينة، فأخلى له زميله المكان، ونزل إلى قلبِ السفينة فلمح «جاك» الشِّراع المثلَّث ورآه

منبسطًا على عَكْس ما يجبُ أن يكون عليه.

ومرّ به «يوسف منزي» في تلك اللحظة، فلفت «جاك» نظره إلى الوضع المعكوس للشراع وقال:

– «من ذلك الغبيّ الذي بسط الشراع على مثل هذا الوضع؟» فقال «يوسف منزي»:

– «لابدَّ أن يكون الزميل الذي نزل يستريح... فاصْعَدْ إلى السارية وأنت الملاَّحُ الماهر وابسط الشِّراع البسطَ الصحيح، وسأمْسِك أنا بعجلة القيادة حتى تعود».

ومدّ «يوسف منزي» يده إلى عجلة القيادة فتركها له «جاك» ومشى إلى السارية، ولحظ أن حبلَ الشراع لم يكن مشدودًا، فانحنى عليه يفكُّ عُقْدته فما كاد يمسك به حتى انقطع، فسقط الشراع فوق «جاك» ولفَّه بمطاويه وسقطت السارية في الوقت نفسه على قيد شبر من رأس «جاك» فنجا من الموت بأعجوبة، وكان لا يزال يتخبَّط في طيات الشراع، فسمع صوت «يوسف منزي» يصيح قائلاً:

– «ماذا ؟ ماذا جرى؟»

فلم يفتْ «جاك» اضطراب «يوسف منزي» فقال يجيبه:

– «لقد سقطت السارية، فأمسك بعجلة القيادة إمساكًا محكمًا، فسوف أعني بإصلاح كل هذا...»

وخلص «جاك» من الشّراع، ونزل إلى قلب السفينة ليجلب منها بعض الأدوات, فرأى الملاح الذي ناب منابه يلاعبُ غلام السفينة بالورق، فصاح فيه مُغْضَبًا:

– «أهكذا ترفعُ الأشرعة وتربط الصواري؟» فقال الرجل فزعًا:

– «أسَقَط الشراع؟» فقال «جاك»:

– «نعم سقط وسقطت معه السَّارية!» فقال الرجل:

– «لستُ أنا الذي رفع الشراع وربط السارية، وإنما هو «يوسف منزي»!»

فتركهما «جاك» وأخذ ما شاءَ من أدوات، وعاد إلى سطح السفينة، وعاين موضعَ القطع من الحبل، فرآه مقطوعًا بفعل فاعل أَمَرَّ عليه حدَّ السكين وربط أليافه ربطًا خفيفًا لكي يبدو للعيان سليمًا وينقطع حالما يُشَدّ.

فأيقن «جاك» أن «يوسف منزي» هو صاحب هذا التَّدْبير، فإن تركه وشأنَه أفلا يعودُ إلى حبك جريمته مرّة أخرى؟ ولئن كان القدرُ قد أنقذه من الموت المحقَّق إنه قد يذهب ضحية ذلك المجرم في فرصة ثانية، فآلى أن يؤدِّبه حتى يأمن شره، فصاح يخاطب «يوسف منزي»:

– «ابْقَ على عجلة القيادة... تُعْوِزُني بعضُ الأدوات سأنزل وآتي بها...»

وبأسرع من تردَّد الطَّرْف نزل «جاك» إلى خزانته وأخذ منها مسدسه ودسَّه في جيبه، وعاد إلى سطح السفينة، وانكب على حبل الشِّراع فانتزع مترًا من كل جانب من جانبي المكان المقطوع بالسكين، ثم وصل الحبلَ وأقام السارية ورفع الشِّراع، وانتهى من كل ذلك في نحو ساعة، فلما اطمأن إلى عمله سار إلى «يوسف منزي» ورمى إليه قطعةَ الحبل المقطوعة بالسكين وقال له:

– «ما رأيُك في هذا؟»

فامتُقع وجه «يوسف منزي»، وزاغ بصرُه، وتجنَّب رؤية الرجل الذي أراد أن يقضي عليه، فتمتم قائلاً:

– «إنه حبلٌ بالٍ... أجَلْ إنه حبلٌ بالٍ...» فقال له «جاك»:

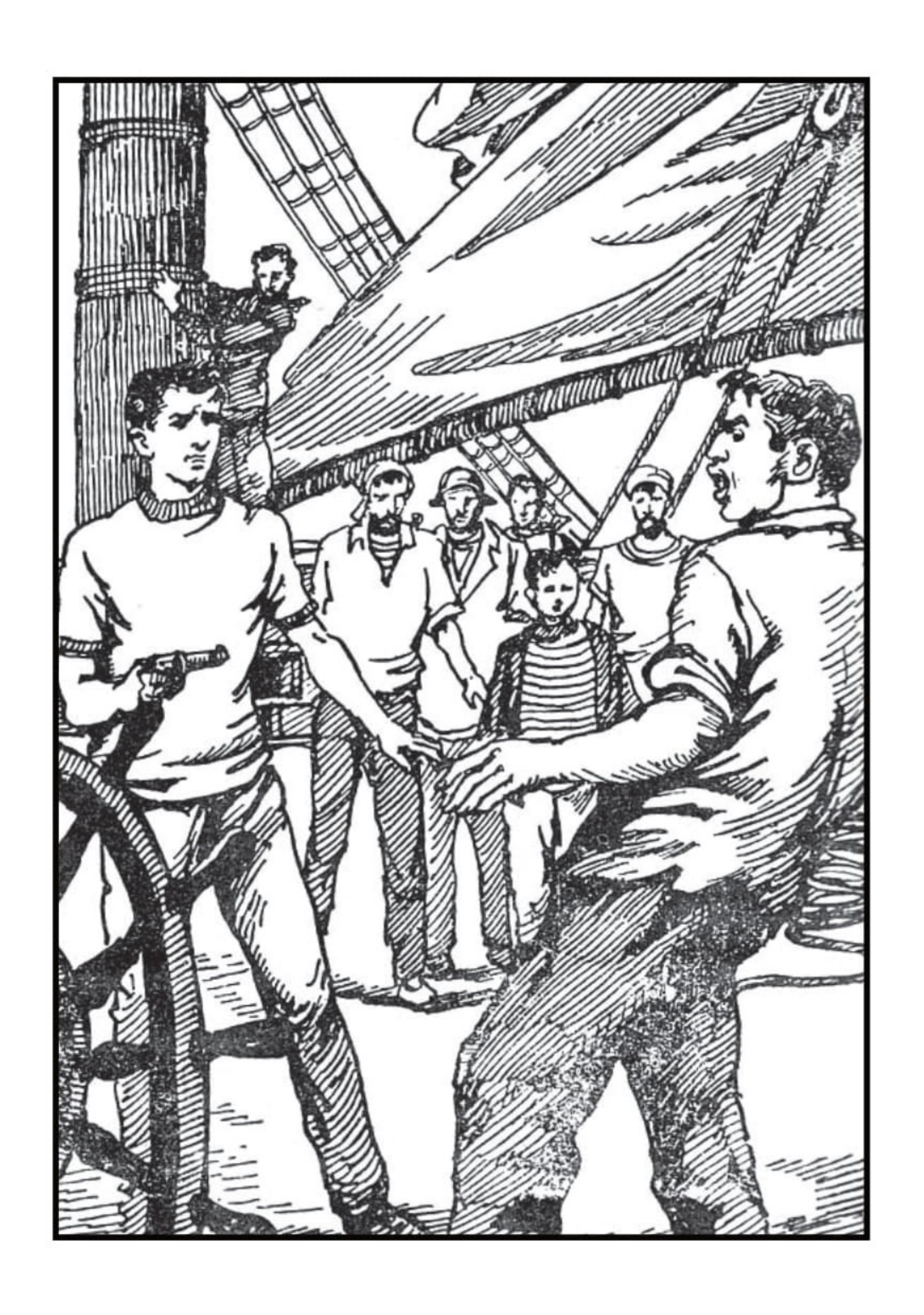
– «أواثقٌ أنت بأنه حبلٌ بالٍ؟!»

وكان الحبلُ جديدًا من أمْتَن أنواع الحبال، فعقد «جاك» فيه عقدةً شديدة واتخذه مِقْرَعة أهوى بها على وجه «يوسف منزي».

فزمجر «يوسف منزي» متألمًا، فترك عجلة القيادة وهجم على ضاربه، فاستقبله «جاك» والمسدس في يده فصوَّبه إلى صدره وقال له:

– «سأقتلك كما يُقتل الكلب الأجْرب أيها المجرم...» فقال «يوسف منزي» وهو يتلعثم:

– «سيكون... سيكو...ن مصيرك السجن!» فقال «جاك»:



– «كلا. فإني في موقف الدِّفاع عن النفس... ومن العدل أن أنقذ البشرية من آثامك وشرورك!... أفهمتَ أيُّها الجبان؟!»

واتَّفق أن صعدَ إلى سطح السفينة في تلك اللحظة غلام السفينة والبحارة، فدهشوا من ذلك الموقف فأنهى «جاك» إلى الغلام بأن يدعو الربّان، فجاء هذا على عجل، وكان سكران ثملا فأطار ذلك المنظر من رأسه نشوة الخمر، فأخذ يجيل طرفه بين المسدس المشهور في يد «جاك» وخدّ ابنه الدامي فقال متسائلاً:

– «ماذا حدث؟ ما هذه الحال؟» فقال «جاك»:

– «أراد ابنك الوَغْد أن يقتلني... ولقد دعوتُك إلى هنا لتكون أنت وبقية البحارة شهودًا على العقاب الذي سأنزله به... لو كنَّا نستطيع أن نَستبدلَ به غيره لكنتُ قتلته قتلَ الكلاب، ولكنني لا أودُّ أن أحمِّلَ نفسي عملاً آخر فوق أعمالي».

ثم وجه «جاك» خطابه إلى «يوسف منزي» وقال له:

– «ارفعْ يديك أيُّها الوَقح!»

فرفع «يوسف منزي» يديه، وسدّد «جاك» مسدسه تسديدًا مُحْكمًا إلى أصبع من أصابع «يوسف منزي» ثم ضغط على الزّناد فانطلقت الرَّصاصة وقطعت إبهام «يوسف منزي» قبل أن تستقرَّ في صفحة الماء، فشرع هذا يبكي ويصرخ وجثا على ركبتيه يطلبُ الرحمة، فصاح فيه «جاك» صيحةَ الليث الغضوب:

– «ارفع يديك وإلا فودِّع الحياة!»

فرفع «يوسف منزي» يديه مرةً أخرى، وانطلقت رصاصة ثانية شرَمَتْ له السبابة وهكذا فقدت يده اليسرى إصبعين ولم تعُدْ إلا قطعةً من اللحم الدّامي...

لم يستغرق ذلك المشهد أكثر من عشرين دقيقة، ولقد كَفَتْ تلك العشرون لتنتزعَ من صدر «جاك» كلّ ما كان يجولُ فيه من أدبٍ ورقّة، ولُطفٍ ودَعَة. فانقلب رجلاً غليظ الكَبد جافي الطِّباع قاسي الوجه، فاقترب من «يوسف منزي» ورفسه برجله وقال له:

– «انهض أيها الوغدُ البليد»

ثم التفت إلى بقية الرجال وقال لهم في جفاء وغلْظة:

– «لينصرف كلٌّ إلى عمله...»

فانصرفوا طائعين، وأصبحوا بعد ذلك رهنَ إشارة من إشاراته ينفِّذون كلَّ ما يأمر به وينهي، كأنه هو الربان، ولا يتورَّع عن أن يقذفهم بالشتائم والسباب وهو الفتى الحضري المتمدِّن.

وعاش «جاك» بعد ذلك على ظهر تلك السفينة في ثورةٍ جامحة، فلم يحقد عليه رفاقُه بل أضمروا له في نفوسهم عواطفَ الإعجاب.

أمَّا هو فكأنما قطع ذلك الحادث كلّ صلة له بماضيه، فأقبل على حاضره يعيشُه عيش هؤلاء الملاحين، حتى أصبح لا يفكِّر فيما كان عليه وفيما أصبح فيه، لولا ذلك الستار السَّفيق الذي انسدل على الماضي لتقطَّعت نفسُه حَسَرات.

انتهت الرحلة وعادوا منها بصيد ثمين، فلم يكن «جاك» مشوقًا إلى المدينة حتى لكأنه أصبح يكره نظامَ المدن ومجالي الحضارة فيها، وكان إذا لَبَّى دعوة «هارفر» إلى تناول الطعام في منزله، لم يحفلْ بالمائدة الأنيقة، والطعام الشهيّ، والملاءة النظيفة، والصحون اللاَّمعة، بل كان يؤثر عليها قذارة السفينة ومَتاعها.

وكثرت الرحلات إلى البحار النائية، وعاد دائمًا منها بالمغانم الكثيرة وأصبح لا يقابل صاحب السفينة إلا عندما يقبض من مكتبه نصيبه من مغانم الصَّيْد.

وأدرك «هارفر» ذلك التغير الذي طرأ على الفتى، فما لامه في قرارة نفسه ولا رثى لحاله، بل سرَّه أن يرى في «جاك» رجلاً مكتمل الرجولة، بنى نفسه بنفسه فلم يتضعضعْ لحوادث الأيام ولا وَهَنَ منه العَزْم...





٤

اشترى «هارفر» ذاتَ يوم سفينةً يسيرها البخار، فعرض على «جاك» أن يعمل فيها مساعدًا للربّان فأبى ونزل عن تلك الترقية، لأنه في الواقع كان الربان الحقيقي للسفينة التي يعمل عليها وإن لم تكن سفينة بخارية، على أن «هارفر» ألحّ وشدَّد في الإلحاح، فلم يسع «جاك» إلا الإذعان.

ولشدّ ما دهش «جاك» عندما جاءهُ الغلام «جيّوم» والتمس منه أن يصحبه معه في سفينته الجديدة، فرفض «جاك» ونصحه بالبقاء حيث هو، فمجال التقدم في السفينة التي يعمل فيها أيسر أمرًا، في حين أنه لو التحق بالسفينة

الجديدة فلن تكون مهمته فيها غيرَ مهمة الغلام الخادم.

وكرّر «جيّوم» الرجاء والالتماس وبيّن للفتى «جاك» أنه يخشى سطوة «يوسف منزي» فسوف يقتله لا محالة لأول هفوة يرتكبها، وأنه فوق ذلك يريد أن يستمرّ في خدمته، فهو أعْرَف الناس بعاداته وألوان الطعام التي يؤثرها ويحبّها... فما زال به يرجوه ويلح في الرجاء حتى قبل «جاك» أن يجيبه إلى سؤله، ووعده أن يحدّث السيد «هارفر» صاحب السفينة في ذلك، فلم يمانع هذا بل ضمّ الغلام إلى رجال السفينة الجديدة، ورقّاه إلى منصب ملاح.

رفعت السفينة مِرساتها في اليوم الثلاثين من شهر مارس، وسارت تشقُّ العباب إلى قصيّ البحار، وتسلم «جاك» منصبه فيها، وبدأ يستعمل نفس الطريقة الجافية التي استعملها مع رجال السفينة الأولى وأتت ثمارها. غير أن البحّار الموكول إليه إدارة محرك السفينة، لم يرتح إلى معاملة «جاك» فقد كان يعد نفسه دائمًا في مقام الربان المساعد، فضاق صدره ذَرْعًا بهذا الفتى الذي جاء ينهي ويأمر ولا يرعى له حُرْمته السالفة، فتمّرّد في اليوم الأول على «جاك» فلقّنَه «جاك» درسًا قاسيًا في الخضوع والطاعة، وكال له الضَّرَبات العنيفة. فكلّفه تمرُّده فقدانَ ثلاث من أسنانه، وعاد إلى مكانه خاضعًا ذليلاً، فاعتبر بقية الملاحين بذلك الدرس، وساد النظام في السفينة على ما يحبّ «جاك» ويشتهي.

وقضى «جاك» كل أوقات فراغه منكبًّا على دراسة الخرائط والأنواء،

وعلوم البحر والفلك، وطبائع الأسماك الكبرى، ومختلف المواقع والخلجان المنتثرة في «إسلندة» و «نروج»، حتى إذا كاد الصيف ينتهي، كان ملاّحًا ممتازًا عليمًا بفنون الملاحة وأسرارها.

وحينما عادت السفينة إلى مدينة «برست» تقدم إلى الامتحان ليشغل منصب ربّان سفينة، فجاز الامتحان ونجح فيه نجاحًا باهرًا، وكان «هارفر» قد اشترى سفينتين جديدتين فعيّنه ربّانًا على إحداهما.

بَيْدَ أن هذا التغيُّر الذي طرأ على علمه وفنّه في شؤون الملاحة لم يبدّل من أخلاقه المكتسبة ولا من عاداته، فهو هو ذلك الجاف الغليظ، والرجل الذي لا يعانَد، فطارت له شهرةٌ بين السفن والملاّحين، وكان «جيّوم» الغلام ألزَمَ له من ظلّه، يحبُّه ويُعْجَب به كلَّ الإعجاب.

وصلت أنباء تلك الشُّهرة إلى مسمعِ «هارفر» فطرب لها، وسرَّه أن يرى في ذلك الفتى الجسور المقدام رجلاً حازمًا يرهبه العاملون ويحسبونَ له ألفَ حساب، فقرّر فيما بينه وبين نفسه أن يُعْفِيَه من العمل على ظهر السفينة، ويعهد إليه في إدارة مكتبه، طمعًا في أن يفرض على رجال المكتب هيبته وسطوته، فيسود بينهم النظام، ثم يُنظر في أن يشْرِكه معه في أرباح الشركة.

وعاد «جاك» يومًا من إحدى رحلاته، ففاتحه «هارفر» في الأمر ومنّاه بزيادة راتبه إذا هو قَبِل أن يدير الشركة، فأبى «جاك» واعتذر،

وقال له بعد شديد إلحاحه:

- «لقد قذفتَ بي يا سيدي إلى البحر، فدَعْني أعيش في البحر وأموت فيه... إني لم أعُدْ أصلح لحياة المدن، فبيني وبين تلك الحياة هوّةٌ عميقةُ القَرار...»

فتبسم «هارفر» وقال:

- «لستُ نادمًا على أن قذفتُ بك إلى البحر، فقَسوةُ الحياة فيه قد جعلتْ منك رجلاً أيَّ رجل... أما عادات المدينة والحياة في غمارها، فسوف تألَفها عما قريب، فلا تنس أنك ابن «بارون» وفتّى من عِلية القوم...» فقال له «جاك» آسفًا:

- «إن الماضي يا سيّدي قد مات في خاطري، فلستُ اليومّ إلا ملاّحًا ذا يدين خَشِنَتين ونفسٍ صارمة... ولستُ أنسى أنك رأفتَ بي ودبَّرت لي عملاً أرتزق منه بعد نكبتي، فاتركني لهذه الحياة التي رمَيْتني في أمواجها...» فقال «هارفر»:

- «إني مصرٌّ على ما أعرضه عليك، وسوف تستجيبُ لرَغْبتي، على أنني أمهلك شهرين تفكر فيهما وتتدبّر أمرك».

وانصرف «جاك» وقد صمّم على أن يرفض طلب «هارفر» فما عاد يستعذبُ العيش في المدن، وقال في نفسه: لئن رجعتُ من هذه الرحلة التي سأقوم بها بعد أسبوع، ورأيت «هارفر» مصرًّا على فكرته

لأستقيلنَّ من عملي عنده وأذهبنَّ إلى «باريس» وأنفقنَّ فيها ما ادخرتُ من مال لاهيًا متمتعًا بمباهج الحياة، ولن أعْدَمَ بعد ذلك صاحب سفن يلحقني بالعمل على إحدى سفنه ما دمتُ قد أصبحتُّ ربَّانًا ماهرًا وفي يدي شهادة ناطقة بذلك.

وانقضى الأسبوعُ، وسار «جاك» بسفينته إلى الصيد في أعالي البحار، وقضى هو ورجاله عدّة أسابيع يجمعون المغانم من ثروة البحر، وعرّج بسفينته وهي راجعة على بعض شواطئ «إسلندة» ليتزودّ ببعض الزاد من قريةٍ من قراها.

وفيما هو يقتربُ من الشاطئ، هُرِعَ إليه أحدُ الملاحين يدعوه إلى مخزن السفينة وأماراتُ الفَزَع والاضطراب والحزن مرتسمةٌ على وجهه، فطار إلى المخزن فوجد الغلام «جيوم» منطرحًا إلى الأرض وهو أقربُ إلى الموت منه إلى الحياة، فعلم أن صندوقًا من الصناديق الضخمة قد سقط فوقه فحطَّم عظامه، وأن رفاقه قد بذلوا جهد اليائس في انتشاله من تحت الصندوق، فأمر بنقل الغلام إلى مخدعه، وأسعفه بما لَزِم، وانحنى فوقه يرطِّبُ خاطره، ويشجّعه على احتمال الأذى والألم، ففتح الغلام عينيه فقرأ فيهما «جاك» عبارات الشكر فقال له:

– «أتتألَّمُ يا «جيو»؟ » فقال الغلام بصوت خافت:

– «قُضِيَ الأمر يا سيدي، سأموتُ بعد قليل...»

وكان العرق يتصبَّب من جبين الغلام، وأنفاسه تتقطَّع فقال:

- «عبثًا تحاول إنقاذي يا سيدي... إني مائتٌ لا محالة... ولن أرى منزلي وأهلي...»

ولزم «جاك» الصمتَ مذهولاً من شجاعة الغلام، فما سمعه تألم ولا اشتكى، على ما هو عليه من جراحٍ وعظامٍ محطَّمة.

وبعد لحظات سمع «جاك» الغلام يقول له:

- «نعم... سأموت... ولكن اسمع يا سيدي «جاك» وصيتي إليك: عندما تخمد أنفاسي فانقلني إلى الشاطئ، وأوْدِ عْني حفرةً من الأرض... لقد عشتُ ما عشت فوق متْن البحار فدَعْني أستريح بعد الموت تحت الأعشاب... إني أخاف من الأسماك، لقد كانت طعامي طولَ عمري، فلا تجعلها تأكلني».

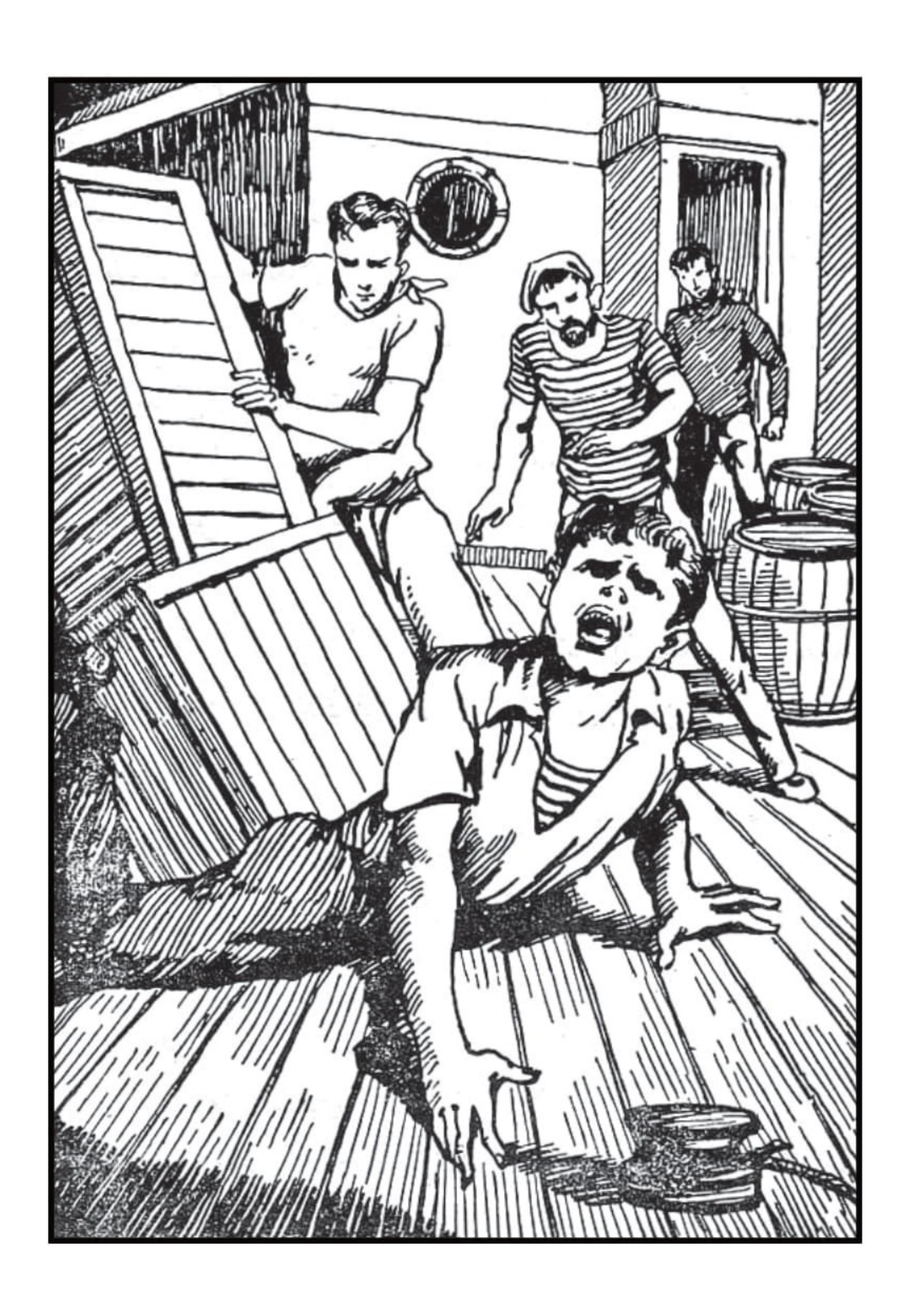
وحاول الغلامُ بعد كلامه هذا أن يبتسم، ثم تابع كلامه قائلاً:

- «إن لي أخًا يعمل في سفينة تسمى «المغامرة الجميلة» ولقد كنتُ أخذت منه علبته التي يضع فيها التبغ فأرْجِعها إليه غيرَ مأمور...»

وبدأت عيناه تغيمان، ففتحهما في صعوبة وقال:

- «قل لي يا سيدي «جاك»... هل مِتُّ كما يموتُ الرجال؟ ما صرختُ ولا اشتكيتُ، أليس كذلك؟»

وبقى «جاك» صامتًا لا يحيرُ جوابًا، فما هى إلا ثوانٍ معدودات



حتى لفظ الغلام أنفاسه، فأقبل عليه بعضُ البحَّارة فكفّنوه و«جاك» ينظر إليه حزينًا، وهو الذي اجتثَّ فؤاده كلَّ شعوره بالعطف والحنان، ولكنَّ الحزنَ نغلب على قسْوة فؤاده لما كان يعلم من حب الغلام له.

وتذكر وصية الغلام فقرّر أن ينفِّذها ما دام قد ماتَ ميتة الرجال.

وصَعِدَ إلى ظهر السفينة، وأجال بصره في زرقة البحرِ وهو ساهمٌ واجم، يعتمل في صدره شعورٌ غريب. وكادت السفينةُ تصلُ إلى أقرب موقع من الشاطئ تستطيع الوقوف فيه، فأمر «جاك» بإنزال «أحد» القوارب ونَقْل جثَّة الغلام إليه ليستقلَه هو وبعض الملاحين إلى الساحل.

ومرّ به أحد الملاحين وكان ممن يعرف بلاد «إسلندة» كلّ المعرفة، فوقفه وسأله عن اسم تلك القرية التي تلوح لعينيه عن بعد، فقال له الملاّح:

– «إنها يا سيدي قريةٌ تدعى «درهولاي» وهى واحدةٌ من ثلاث قرى صغيرة تقوم على سَفْح تلالٍ جُرْد».

فقال «جاك»:

– «وما معنى «درهولاي»؟» فقال الملاّح:

– «معناها يا سيدي «ثقب الباب» «.

فاكتف «جاك» بما سمع، وأشار بيده إلى الملاح إشارةَ الانصراف

فانصرف، وأخذ «جاك» ينتظر إنزالَ القارب وقد نشبت في صدره ثورةٌ عنيفة.

ذكَّره اسمُ القرية بتلك الأرض الجرداء التي استغلها والده للنصب والاحتيال، فألّف لها الشركة الوهمية، وزعم أنها مناجم غنيّة سوف تستخرج الشركة منها الكبريت، وذكره اسمها أيضًا بأن أول ضحية لوالده كان ربَّانًا عجوزًا اكتتب في تلك الشركة بكل ما كان ادّخره من مال، حتى إذا بانتْ له حقيقةُ الحال، حزِن أشد الحزن، ثم مات غمًّا وترك بعده على ما قيل «لجاك» ابنةً وحيدة يتيمة.

وعَجب «جاك» من تصرُّف الأقدار، ففي الوقت الذي كان قد عزم أن يترك حياة البحر إلى حياة المدن، وفي الوقت الذي كان قد قطعَ فيه كل علاقة بماضيه، يدفعه القدر إلى بقعة تثير فيه ذكرياتِ الماضي بكل ما تتضمّنه من المآسي والآلام.

وصحا «جاك» من تفكيره على صوتِ الرجال الذين أنزلوا القارب ونقلوا إليه جثة الغلام «جيّوم»، فغادر السفينة إلى القارب مضطرب الفؤاد ثائرَ الجوانح.

ولقيتهم عند الساحل جماعةٌ من القرويِّين، طلب إليهم بعضُهم أن يشتروا منهم قليلاً من التَّبْغ، فزجرهم «جاك» وأجابهم بلهجة قاسية، وأعلمهم أنَّهم لا يتاجرون بالتّبْغِ.

وسأل «جاك» سيدةً عجوزًا من تلك الجماعة، أن تدلّه على مدافن القرية ليدفنوا فيها فقيدهم، فدلّته عليها وأخبرته أنه لابد من حضور شيخ القرية ليثبت في سجلّه حادث الوفاة وشهادة الشُّهود، خوفًا من أن تكونَ هناك جريمةٌ من الجرائم.

وتمت مراسيم الدَّفن على ما تقتضيه أنظمة القرية، ثم ودَّع «جاك» قبر غلامه المسكين ورفضَّ عقْدُ القوم.

وشاء «جاك» أن يجول قليلاً في تلك الأنحاء، فاصطحب معه رجلين من رجاله، وآخر من سكان القرية، وساروا قُدُمًا إلى التِّلال الرابضة على بعدٍ من القرية.

وفي أثناءِ المسير سأل «جاك» مرافقَه أن يمضي به إلى الأرضِ الجرداء التي تقوم عند نهاية القرى الثلاث، واجتهد أن يتذكر أسماءها فتذكرها، وكان طالما قرأها في وثائق التحقيق التي أيدت جريمة والده، وكيف لا يتذكر أسماء تلك القرى وما ينبسطُ بعدها من تلال وصخور جُرْد كان «هارفر» قد باعها لوالده، واستغلها والده في حَبْك خيوط جريمته؟

بَلَغ القومُ بعد مسير ساعتين إلى بُقْعَة صخريةٍ مملوءةٍ بالآكام والهضاب، فمن صخور مجوّفة إلى حجارة مسننة، ومن صخرةٍ ضخمةٍ عاتية إلى صخرةٍ صغيرة متواضعة نبتت تحتها بعضُ الأعشاب البرية، وكانت تلك الصخورُ في ألوانٍ متعدِّدة، ينهمرُ عليها الثلج ويجثمُ فوقها طبقة فوق

طبقة، فإذا أذابته حرارة الشمس سال وصَقَل بعض الرُّيود النّاتئة منها فنظر «جاك» إلى تلك البقعة حيرانَ أسِفًا وشاء أن يصطحب منها تذكارًا ولو مؤلمًا، فَعَمَد إلى صخرة خضراء مَلْساء، واقتطع منها قطعةً وضعها في جيبه، وقَفَلَ هو ومن معه عائدين إلى الساحل، فنَفَحَ الدَّليلَ الإسلنديَّ بهبَةٍ مالية، واستقلّ ورجاله القارب، ورجعوا إلى السَّفينة.

ومخرت السَّفينةُ عباب الماء عائدةً إلى الميناء الذي أقلعتْ منه، ففرَّغت أحمالَ الأسماك، ومضى «جاك» إلى مكتب «هارفر» فقبض قيمة نصيبه من الصَّيْد، ولم يعرج على «هارفر» بل مضى توًّا إلى محطة سكة الحديد وركب منها القطار المسافر إلى «باريس».

ولم يكَدْ يصل إلى «باريس» ويخرجُ من المحطة حتى استقل مركبة أجرة وطلب من السائق أن يوصله إلى مكتب صديقه القديم «بطرس» وكان صديقه هذا يعمل هو وشريك له يدعى «أرمان» سمسارين للقراطيس المالية فلما دخل عليه كان هذا منهمكًا في الكتابة، فرفع رأسه قليلاً وقال دون أن يتبين القادم عليه:

– «ماذا تريد يا سيدي؟ هل من خدمة أؤديها لك؟» فقال «جاك»:

– «أريد أوّلاً أن تصافحني يا عزيزي «بطرس»! «

فوثَبَ «بطرس» واقفًا وقد نفضَتْه روعةُ المفاجأة حتى انقلب مقْعدهُ

إلى الخلف فقال:

– «أأنت هنا يا «جاك» أهلاً بك ومرحبًا».

وتصافَح الصَّديقان وتعانقا بلهفةٍ وشوق، وقال «بطرس»:

– «كم تغَيَّرت يا عزيزي «جاك»! كيف هجرتَ المدينة دون أن توَدّعني، كيف حجبتَ عنّي أخبارك طول هذه السنوات الخمس؟ ما هذه الملابس؟ ماذا أصبحتَ؟ أعاملاً في منجم أم باحثًا عن الذهب؟ حدِّثني حدِّثْني عنك... ما حالُك وما شأنُك وماذا فعلت؟» فقال «جاك»:

– «ادّخرتُ قيلاً من المال، وجئتُ أنفقه في «باريس» فساعدني على ذلك... دلني أوّلاً على عنوان خيَّاطك، ثم ابحث لي عن مسكنٍ آوي إليه.» فقال «بطرس»:

– «سأقوم بكل ما تطلب. ما أسعَدَني بلقائك». فقال «جاك»:

– «لستُ أقلَّ منك سعادةً بهذا اللقاء يا عزيزي «بطرس» «.

وحدَّق كلٌّ منهما في الآخر بعينين مغرورقتين بالدُّموع، ثم قال «جاك»:

– «لا أستطيعُ أن أعبِّر لك يا عزيزي «بطرس» عن الغبْطة التي خالجَتْني عندما وطئت قدماي «باريس» ووقعَ نظري على معالمها... لكأنَّها ازدادت حسنًا ورونقًا... آه ما أسعدني فيها... لقد قضيتُ

خمس سنوات لم أحادث في خلالها رجلاً متحضِّرًا... قد أكونُ جافًّا غليظًا ولكنَّني أعدك بأن أستعيد رقَّة الشمائل التي عرفتني عليها بحيثُ لا تخجل من تلميذك». فقال «بطرس»:

– «لا أشكُّ في ذلك أبدًا».

ودَعا «بطرس» كاتبه، ورجاه أن يستأجر مسكنًا لصديقه «جاك» ثم غادر الصَّديقان المكتبَ واستوقف «بطرس» سيارة أجرة ركباها معًا، فلما استوى كلٌّ منهما في مقعده قال «بطرس»:

– «والآن، ألا تقولُ لي من أين جئتَ وماذا تريد أن تفعل؟» فقال «جاك»:

– «ألم أقلْ لك إني آتٍ من الجحيم؟! لقد عشتُ عيشَ الكلاب، على أنني لم أرتكب فيه وِزْرًا ولا إثمًا... كسبتُ رزقي بعرق الجبين وبالمشقّة والعناء، وادّخرت قليلاً من المال جئتُ أنفقه... وكل ما أفكر فيه الآن هو أن أرتاد المسارح وأندية الموسيقى وأفخم المطاعم». فقال «بطرس»:

– «لقد كنتَ أنت تحب كل هذا فيما مضى، وكنت أنا أحاول أن أفهمك أنه تَرَّهات وأباطيل...» فقال «جاك»:

– «كنتُ أبلَهَ أحمقَ...» فقال «بطرس»:

– «وما أحسبكَ عُدْتَ إلى «باريس» لتستسلم إلى الملاهي والمباهج، فلابد من أمر يشغلُ بالك».

فقال «جاك»:

– «استمعْ إليّ يا صديقي... لقد عشت في أوّل الأمر سنتين عيشَ المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة... رأيتُني على قاب قوسين أو أدنى من ارتكاب الجرائم، فأشعتُ من حولي الخوفَ والإرهاب لأكسب رزقي».

ووقفت السيارة بالصديقين، فنزلا منها وأخذا يتمشّيان قليلاً على أرصفة الشوارع، وعينا «جاك» لا تفارق واجهاتِ الحوانيت. أما ضجّة السائرين فكانت تصلُ إلى سمعه وكأنها هدير الأمواج.

ورآه صديقه يتمايل في مشتيه فقال له:

– «لكأنَّك قضيتَ هذه السنوات الخمس على ظهر السُّفن... فكيفَ جمعت المال على حين لم تصل إلينا أية أخبار عن أعمال القرصان».
فضحك «جاك» وقال:

– «تعال نحفل أولاً بشراء بعض الملابس، بل تعال نتناول طعام الغداء».

ودخل الصديقان أحد المطاعم، فتناولا فيه طعامًا شهيًّا، ولما أشعل

«جاك» لفافة التبغ تحسسَ في جيبه قطعة الصخر التي جَلَبها من «إسلندة» كمن يريدُ أن يقنع نفسه أنه يقظان لا يحلم...





٥

قضى «جاك» ثلاثة أسابيع مستسلمًا إلى ما سنَّه لنفسه من نظام اللّهو والمُتْعَة، ففي صباح أحد الأيام دقَّ جرس الساعة ليوقظه من النوم، فصحا متثاقلاً متائبًا، وكانت الساعة الحادية عشرة، فنخض يرتدي ملابسه في سآمة وضجر، ويطيل النظر من نافذة غرفته إلى الشارع المزدحم بالناس بين ذاهب وآيبٍ، فقال في نفسه: لقد استنفدتُ في أقلّ من شهر شَهْوتي إلى الملاهي، فبدأ الملل يدبُّ إلى نفسي وأخذ الشوق إلى البحر يهتاجني.

وبينما كان غارقًا في التفكير، سمع قرعًا على الباب، فأذِنَ للقارع

في الدّخول، وظنّ أن القادم عليه هو بوابة المنزل جاءت تصلح من شأن الغرف، وتعيد تنسيقها وترتيبها ولكن الباب فتح ولم يدخل منه إنسان، فاستدار «جاك» إلى الباب فرأى فتاةً واقفةً عند العتبة فقالت له:

– «عذرًا يا سيّدي فما كنت أعرف أن السيد «إدمون» يستقبلُ بعض الزائرين فهل في استطاعتي أن أقابل السيد «إدمون»؟ «

وكان صوتُ الفتاة ذا جرْسٍ جميل ولهجة نرمنديّة، فقبل أن يجيب «جاك» عن سؤال الفتاة تطلع إليها فاحصًا مدقِّقًا، فرآها جميلةً حسناء على ما هي عليه من نحافة وهزال، ورأى ملابسها ثقيلةً خشنة في حين أن الوقت صيف، فأيقن أنها رقيقة الحال، فدعاها للجلوس في مقعد كان قربَ الباب وأمامه مِنْضدَة صغيرة.

وكانت الفتاة تحمل في إحدى يديها ظرفين كبيرين فقال لها «جاك»:

– «لا أعرف يا آنسة السيد «إدمون» الذي تسألين عنه». فقالت الفتاة:

– «فماذا تعملُ إذن في منزله يا سيِّدي؟» فضحك «جاك» وقال:

– «إني في منزلي يا آنسة... فإن كنت تقصدين المستأجر السابق فقد قيل لي إنه غادرَ هذا المنزل وسافر إلى إيطاليا أو إسبانيا».

فطأطأت الفتاةُ رأسها، وخمدَ بريقُ عينيها، وقالت بلهجةٍ حزينة:

– «ألا تعرفُ عنوانه يا سيدي؟» فقال «جاك»:

– «إن الذي استأجرَ لي هذا المنزل من المستأجر السَّابق مكتب «بطرس وأرمان» للقراطيس المالية، وأظنّ أن صديقك قد طلب إلى السيد «أرمان» أن يوافيه ببريده، فلعله يعرف عنوانه، وإني ذاهب إلى ذلك المكتب فإن شئتِ صحبتُكِ معي».

فقبلتْ شاكرة، وغادرا المنزل، وتحامل «جاك» على خشونته ليجعل الفتاة تمرُّ قبله من الباب، فلما هبطا إلى الشارع استوقف «جاك» سيارة أجرة فقالت له الفتاة:

– «أوثر يا سيدي أن نسعى إلى صديقك مشيًا على الأقدام، فلستُ أَوَدُّ أن أحمِّلك مؤونة الإنفاق فوق مؤونة الإزعاج». فقال «جاك» وكانت السيَّارة قد وقفت:

– «لا إزعاجَ ولا إنفاق، هيَّا تفضَّلي بالرُّكوب».

فنظرت الفتاة إليه مدهوشة، وعندما استقرّت في مقعدها من السيارة قالت له:

– «أسألك المعذرة يا سيِّدي...» فقاطعها «جاك» قائلاً:

– «بل أنا الذي أسألك المعذرة يا آنسة، فقد يبدو تصرُّفي غريبًا شاذًّا في بعض الأحيان...»

فتبسمت الفتاة ابتسامةً حلوة، وقالت وهي هانئةٌ بمقعدها الوثير:

– «ما أجملَ أن يسعى الإنسانُ إلى غايته على مَتْن سيارة!»

وكان «جاك» يسترقُ النَّظر إلى جارته بين الفَيْنة والفَيْنة، فأسفَ على أن يوَشِّح الهُزال جمالها الغض، وأدرك أن قلةَ الغذاء سببٌ في ذلك الهُزال.

وصلت السيارة إلى حيث يقصدان، فترجَّلا منها، وشكرت الفتاة «جاك» شكرًا جزيلاً، وحيّته مودِّعة، ولكنه أصرّ على أن يوصلها إلى السيد «أرمان» فصعدا معًا إلى المكتب ودلَّها على حجرته، ودخل هو إلى حجرة صديقه «بطرس» فقال له هذا:

– «ما الذي جاء بك في مثل هذه الساعة؟» فقال «جاك»:

– «فتاةٌ وسيَّارة... قدمتْ إليّ الفتاة ظنًّا منها أن المستأجر القديم لا يزالُ يسكن المنزل، فأوصلتها إلى هنا، وأدخلتها إلى «أرمان» لتتزوَّد منه بما تشاءُ من أنباء... هذا كلُّ ما في الأمر. وأنت كيف حالُك؟» فقال «بطرس»:

– «بخير وعافية... هل تريد أن تتغدى معي؟» فقال «جاك»:

– «كلاَّ». فقال «بطرس»:

– «ولماذا ؟» فقال «جاك»:

– «إنِّي مشغولٌ عنك اليوم. إلى اللقاء».

وخفَّ «جاك» مسرعًا إلى الباب، وكان قد سمع باب حجرة «أرمان» يُفتح ويُغلق، فنزل إلى الشارع ولقى الفتاةَ التي صحبها إلى مكتب صديقه فقال لها:

– «عذرًا يا آنسة!» فقالت له وهى متضايقة متبرِّمة:

– «لقد ودّعتك يا سيدي منذ هنيهة ولم أقل لك إلى اللقاء».

فاحمرّ وجه «جاك» وقال:

– «أتستطيعين يا آنستي أن تدلّيني على مطعم من المطاعم؟ إني وحيدٌ في «باريس» و...»

فقاطعته الفتاة مغضبة وقالت:

– «أنتَ مخطئٌ في ظنّك يا هذا... لقد كنتَ منذ قليل جافًّا غليظًا وأراك الآن جسورًا وَقِحًا...»

فقال «جاك»:

– «عُذْرًا يا آنسة، لا تعدِّيني جسورًا وَقِحًا بل أبْلَهَ يسيءُ التصرُّف، ولن ينقذني من حكمك عليّ إلا صراحتي... لم ألْقَكِ الآنَ اتفاقًا ومصادفة، بل قَصْدًا وعَمْدًا فقد سمعتك تنصرفين من حجرة السيد «أرمان» فلحقتُ بك وفي نيَّتي أن أدعوَك لتناول الطعام، ولكننى لم أكن كيِّسًا في توضيح نيتي ودعوتي». فقالت الفتاة:

– «أكنتَ تعتقد أني أقبلُ دعوتَك». فقال «جاك»:

– «نعم ولو على سبيل الرأفة والشفقة... آه لو تعلمين شقاءَ الإنسان عندما يكون وحيدًا في الحياة!»

فهزّت الفتاة كتفيها فاستأنف «جاك» يقول:

– «نعم إني لأحسب أنك أنتِ أيضًا تتناولين طعامك وحيدةً منفردة، ولكنك قد تكونين تعوّدت هذا... فرُحْماك لا ترفضي دعوتي...»

وبدأت الابتسامة تخطُّ خطَّها الرقيق على شفتي الفتاة فقالت:

– «أقبلُ دعوتك يا سيدي... إن مرافعتك أعجبتني وسرَّتْني.. وسوف أكونُ صريحةً معك كما كنتَ صريحًا معي، فالسببُ الذي حملني على قبول دعوتك هو الاقتصادُ وتوفير الفرنكات القليلة التي كنتُ سأنفقها على غدائي، وهو وفرٌ كبيرٌ بالنسبة إلى رقّة حالي».

فخطف «جاك» الفرصةَ خَطْفًا، واستوقف سيارة فصعدا إليها وقال للسائق:

– «إلى مطعم «كافى دى باري». فقالت الفتاة معترضة:

– «كلاّ. إنه مطعمٌ فخمٌ أنيق، ولسوف ينظرُ إليّ الناس شَزرًا، فملابسي الخشنة ملابسُ الشتاء وإن كنا بعدُ لا نزال في فصل الصيف».

فقال «جاك»:

– «سمعًا وطاعة يا آنسة سنختار مطعمًا آخر».

وأنهى إلى السائق بالمسير إلى مطعم آخر ذكره له وكان مطعمًا هولنديًا

صغيرًا جميلاً كان «جاك» قد تناول فيه الطعام في مرّةٍ سابقة.

وارتاحت الفتاة إلى هذا المطعم فجلست إلى المائدة في سرور ظاهر فقال لها «جاك»:

– «أمسرورةٌ أنت يا آنسة؟» فقالت الفتاةُ:

– «كلّ السرور».

وقضيا معًا وقتًا طيبًا في تناول الطعام وفي تجاذب أطراف الحديث، فقص عليها قصص البحر وغرائبه، وعلم منها أنها تزاول الرسم والكتابة، وأنها تساعد أحيانًا بعض الكُتّاب في إعداد مصادر البحث لمؤلفاتهم وهذا ما يفسر زيارتها لمنزل السيد «إدمون» في هذا الصباح ثم قالت:

– «كان الرجل من الكتاب الأدباء، وكان قد عهد إليّ في إعداد المصادر لموضوع من الموضوعات، ولكنني كنت منحرفة المزاج في الأسبوعين الماضيين فتأخرت عليه، ولقد سلمتُ عملي إلى السيد «أرمان» ووعدني بأن يرسله إليه، غير أنني سأضطر إلى الانتظار بعضَ الوقت لأظفرَ بأجري».

فهمّ «جاك» أن يسألها سؤالاً، ولكنه خشى عاقبةَ السؤال، فتطلّع إليها وتطلعت إليه وقرأ كلٌّ منهما ما يدور بخَلَد الآخر، فقد أراد «جاك» أن يقرضها المبلغ المنتظر، وأرادت هى أن تعتذر عنه شاكرة فقالت:


BAR

- «شكرًا لك وألفَ شكر فسوف أنتظر».

وكانت الساعةُ قد قاربت الثانيةَ بعد الظهر، فنهضت الفتاةُ وودّعت «جاك» طالبةً إليه أن لا يكلف نفسه مؤونة صحبتها، فأذعن على مضَض، ونظر إليها وهى منصرفة وقد بدأ يشعر بميل شديد إلى هذه الفتاة الغريبة.

بقى «جاك» قليلاً في المطعم يدخِّن سيجاره، ثم انصرف مفكرًا مهمومًا، فلقاء هذه الفتاة الكريمة النفس النقية الذيل، قد عصف به عصفًا وجعله أضْيَق صدرًا بالوحدة التي يعانيها.

وجال «جاك» في الشوارع على غير هُدًى حتى الساعة الثالثة والدقيقة الثلاثين، وعاد بعد ذلك إلى منزله محتاجًا إلى راحة الجسم والبال، وعندما دخل الغرفة التي استقبل فيها منذ ساعات زائرته الغريبة التي يجهل عنها كل شئ حتى اسمها، علق نظرُه بالمقعد الذي جلست فيه، وبالمنضدة التي أمامها، فرأى أن الفتاة قد نسيتْ على المنْضَدة حقيبةَ يدها، فأخذها بين يديه وفتحها بحركةٍ عَفْويَّة دون أن يقدر في نفسه أنه يرتكب عملاً لا يليق بكرام الناس، فوجد فيها منديلاً، ومحفظةً صغيرة للنقود، ومفكرة للعنوانات، فقلب المنديل بين يديه فرأى في أحد جوانبه حرفين مرسومين هما: م. ر. فما من شك أنهما الحرفان اللذان يبتدئ بهما اسم الفتاة واسم أسرتها، ولكنهما لم يكشفا له ما يجهل من أمر الفتاة، وفتح مفكرة العنوانات وقلب صفحاتها فقرأ فيها أسماء بعض الكتّاب والصحفيِّين والناشرين

فبقي عليه أن يفتح محفظة النقود فوجد فيها قليلاً من العملة الفضية ووجد في بعض جيوبها أربع بطاقات كتب عليها:

ماري ريشارد

شارع جان رولان رقم ١

مونروج

فانطبع الاسم والعنوان على الفور في ذاكرته وأخذ الحقيبة ووضعها في خزانته بالقرب من قطعة الصخر التي جلبها معه من «إسلندة» وشرع يفكر فيما هو فاعل.

خَطَر له أوّلاً أن يكتب لصاحب السفن «هارفر» ويطلب إليه امتدادًا لعطلته، وقرّر أن يقضي بقية الأيام منها في شئ غير اللهو والفُرْجة فقد أصبح يَعافُهما.

ومضى به التفكير إلى الزَّواج، فساءل نفسه أتُرَى هذه الفتاة تقبله زوجًا لها؟ وبقي السؤال حائرًا دون جواب. ثم جلس إلى المنضدة وكتب كلمةً عَجْلى إلى «هارفر» ثم تذكر أنه مدعو لتناول الشاي عند سيدة تدعى «دوبريف» كان صديقه «بطرس» قد قدّمه إليها في أحد الأيام.

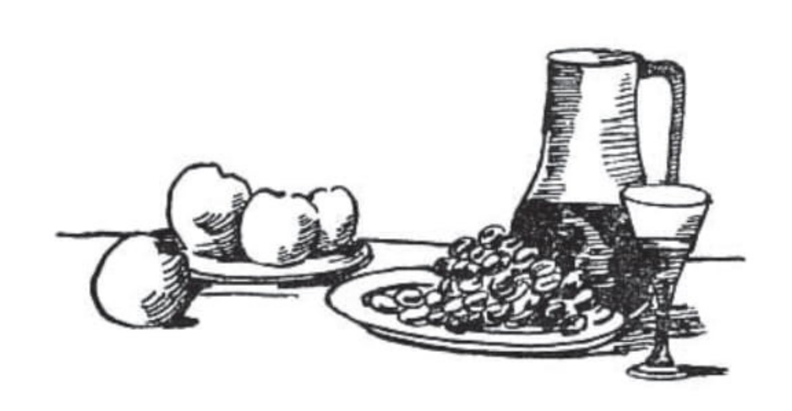
وقبل أن يغادر المنزل، فتح خزانته وغير ربطة عنقه، وألقى نظرةً أخيرة على حقيبة اليد ثم على قطعة الصخر الإسلندية، فتناولها بيده ودسَّها في جيبه دون ما غايةٍ ولا سبب.

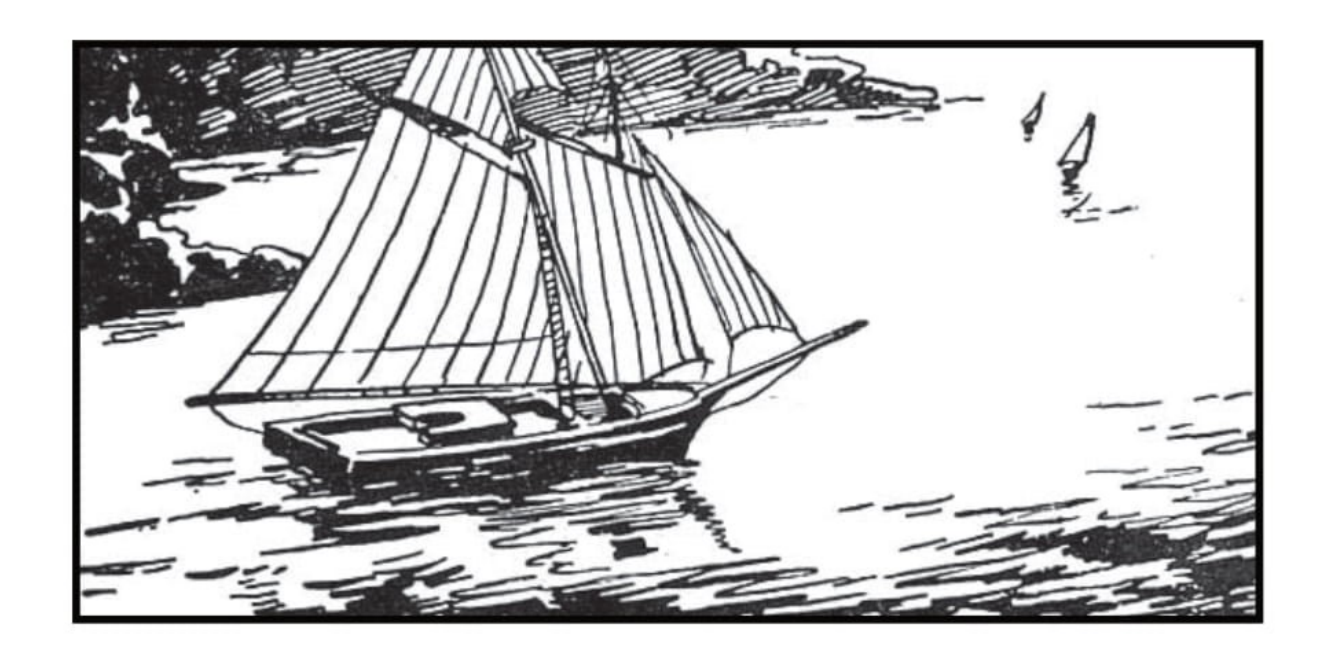
ولقى بوّابة المنزل في طريقه، فأخبرها أن الفتاة التي زارته في الصباح قد نسيت عنده حقيبةَ يدها، فإذا جاءت تطلبها...» فقاطعته البوابة قائلة:

– «أسيّدي واثقٌ برجوع الفتاة؟» فقال «جاك»:

– «لست أدري، ولكنني أعتقدُ ذلك، وكيفما كان الأمر فها هو ذا مفتاح منزلي، فإذا قدمت الفتاة فارجي منها أن تنتظرني، فسوف أعود في نحو الساعة السادسة ولا تنسَيْ أن تقدمي لها فنجانًا من الشاي».

وسار إلى صندوق البريد فوضع فيه الرسالة التي كتبها إلى «هارفر» ومضى قاصدًا منزل السيدة «دوبريف»...





٦

كانت السيّدة «دوبريف» أرملةً حسناءَ على شئ من الثراء، فمنذُ عرفت «جاك» أعجبتْ بمظهره ومخبره وأصبحت تغتبطُ برؤيته وحديثه.

فلما أقبل «جاك» يزورها خفَّت إلى استقباله فرحةً مستبشرة، وقدّمت إليه شابًّا كان يزورها في تلك الأثناء وكان من موظفي المتحف في القسم الخاص بعلم طبقات الأرض.

ودارت أكوابُ الشاي على الحاضرين، واستسلم هؤلاء الثلاثة إلى مختلف الأحاديث، ولئن كان «جاك» مُعْجَبًا بجمال السيدة «دوبريف»

لقد كان يرثى لعقلها الصغير صِغَرَ عقل العصفور.

وعلى حين غرّة وضع «جاك» إبهامه في جيب صداره، فلمس قطعة الصخر الإسلندية فيه، فضحك ضحكة أليمة ثم أخرجها وقدمها إلى الشّاب وقال:

– «هل لك يا سيدي أن تقول لي عن طبيعة هذه الحصاة ما دمتَ من علماء طبقات الأرض؟»

فمدّ الشاب يده وتناول قطعة الحجر من يد «جاك» وقلّبها بطنًا لظهر، وأخرج سكِّينًا صغيرة من جيبه وأخذ يحكّ بحدّها صفحة الحصاة، ثم بلَّ بريقه المكانَ المحكوك، وطفق يفحصه فحصًا دقيقًا وانتهى قائلاً:

– «إنّها قطعة من الدَّهْنَج». فصاح «جاك»:

– «إنها قطعةٌ مِمَّاذا؟» فقال الشاب:

– «من الدهنج.» فقال «جاك»:

– «وكم تساوي؟» فقال الشاب:

– «لستُ أدري على الضبط، فالجوهريُّ أعْرَفُ مني بالقيمة، فالدَّهْنَج ضرب من ضروب الألماس الذي يستعملُ في الحليّ الرخيصة». فقال «جاك»:

– «وعلى هذا ألا تدري كم يساوي الطنّ الواحد منه؟»

فأغرق الشاب في الضَّحِك وقال:

– «كم يساوي الطن؟! إن الدَّهْنَج يا سيّدي لا يباع بالطنّ، كما أن الألماس الحرّ لا يباع بالقنطار».

فقال «جاك»:

– «إذن فسِّرْ لي يا سيدي ما معنى الدَّهْنَج وما هو».

فشرع الشابُّ، وهو معجبٌ بنفسه وعلمه، يحاضرُ سامعيه في أنواع الحجارة الثمينة، وفي أكسيد النحاس ومشتقّاته، وكان «جاك» يستمع للشاب بكل جارحةٍ من جوارحه، ويسجّل في ذهنه كلَّ ما يسمع، ويتطلّع أحيانًا إلى السيدة «دوبريف» ويسرّه أن يراها على جهل شبه مُطْبَق بما يقال. فصاح «جاك» بالفتى في آخر الأمر وقال:

– «أتعتقد إذن أن الدَّهْنَج ذو قيمة؟» فقال الشاب:

– «يزداد قيمةً إن كانت صِفاحُ الحجارة منه كبيرة الحجم، فالمعروف أن القيصر «نقولا» أهدى للرئيس «فور» مِنضدةً مصنوعة من قطعة واحدة من هذا الحجر، ويقال إنها لا تقدر بثمن. أما إذا كان الدَّهْنَج حجارةً صغيرة كالتي معك فلا تساوي كبير ثمن».

واقتنع «جاك» بما سمع، فنهض مستأذنًا في الانصراف، ونزل درجات السلّم أربعًا أربعًا، وطار إلى أوّل جوهريّ لقيه في طريقه، فدخل الحانوت ووضع قطعة الحجر على مِنْضدة الجوهريّ وقال:

– «هذا ماذا؟ وكم يساوي؟»

فنظر إليه صاحبُ الحانوت مدهوشًا وقال:

– «هذا دَهْنج... واعلم يا سيّدي أنك في حانوت جوهريّ، فإن شئتَ أن تعرف قيمة هذا الضرْب من البَلاط فاسأل فيه أحدَ البنائين. مع السلامة يا سيّدي».

والتقط «جاك» قطعة الحجر ومضى يذرع الشوارع باحثًا عن جوهريّ آخر، فمرّ في طوافه ببائع ساعات قديمة، فدخل الحانوت وسأل صاحبه:

– «أتشتري يا سيّدي حجارة الدَّهْنَج؟» فقال الرجل:

– «إن السوق راكدة يا سيدي...» فقال «جاك»:

– «وكم تساوي؟» فقال الرجل:

– «ليس لها سعر محدود، فالدَّهْنَج عندما كان لا يُسْتخرج إلاّ من «روسيا» كان غالي الثمن، وكان يساوي الكيلو الواحد منه خمسين فرنكًا، أما وقد بدأوا يستخرجونه من مناجم «أستراليا» فسعره قد هبط وأصبح يساوي الرطلُ منه الآن نحو سبعة فرنكات، فكم عندك منه يا سيّدي؟»

فأخرج «جاك» القطعة من جيبه فوزنها التاجر وقال:

– «أشتري منك هذه القطعة بنصف فرنك». فقال «جاك»:

– «لا أبيعها بألف فرنك». فقال التاجر:

– «أنت إذن مجنون... حَسَن... أعطيك بها فرنكًا».

ولكن «جاك» كان قد أصبح خارجَ الحانوت ومشى وهو يحدّث نفسه قائلاً: الكيلو بعشرة فرنكات... أي أن الطن بعشرة آلاف فرنك... ليتني كنت حيًّا قبل الكشف عن مناجم «أستراليا»... ولكن هذا حسبي. كتبتُ إلى «هارفر» طالبًا منه أن يَفْسَحَ لي في العُطْلة، غير أنه سينتظر طويلاً... بقي أن أعرف كيف أستردّ أسهم الشركة والسندات... إنها الآن لا تساوي شيئًا فقيمتها صفرٌ إلى الشِّمال... فلو ذاعَ الخبر خسرتُ كل شئ فلأعملنّ إذن في حكمةٍ وحَذَر...

وفكّر في صديقه «بطرس» وقرّر أن يشاوره في كيف يسترجع الأسهم والسندات دون أن يُطْلِعه على السبب الحقيقي... وتمنى لو كان سأل الفتى العالم بطبقات الأرض مزيدًا من العلم والبيان, وتذكّر قول الفتى أن الدَّهْنَج مزيجٌ من الكبريت والنحاس، فماذا زعم إذن «هارفر» منذ خمس سنوات عندما استجوبه المحقق؟! وحتى لو كانت طبقة الكبريت غير كبيرة فالحجر يساوي ثمنًا من الأثمان...

وثقلت وطأة الأفكار عليه، فعاد إلى منزله فرأى الباب نصف مفتوح، فدخل وكانت الفتاة التي لقيها في الصباح تكاد تنتهي من شرب الشاي، فخفق قلبه سرورًا واضطرابًا.

فنهضت «ماري ريشارد» تستقبل «جاك» مبتسمةً فصافحها وهو يحاذر أن يسقط من شدّة الاضطراب فقال لها:

– «عندي أنباء سارّة سأفضي بها إليك». فقالت ولم تُدْرك وأنَّى لها أن تُدْرك أيّ خبر سار سينهيه إليها:

– «أجِّلْ أخبارك السارة إلى وقتٍ آخر، وتَفَضَّلْ بإعطائي حقيبة يدي في الحال». فقال:

– «أرجو منك...» فقاطعته قائلة:

– «إني مرتبطةٌ بموعدِ عمل، ولا أستطيع البقاء دقيقةً واحدة، فهل لك يا سيّدي أن تردّ إلَيّ حقيبة يدي؟» فقال:

– «إنها في خزانتي، ولكننى أريد أن أحدّثك... وأن أقول لك...» فقاطعَتْه ثانية وقالت:

– «حقيبة يدي يا سيّدي». فقال:

– «تريَّثي قليلاً يا آنسة واعلمي...» فقاطعته ثالثةً وقالت في لهجة جادّة:

– «أتريد يا سيّدي أن تردّ لي حقيبة يدي؟»

فتردّد «جاك» قليلاً ثم مضى إلى الخزانة فأخرج منها الحقيبة ووضعها على المنضدة، وأسند ظهره إلى الموقد وقال:

– «ها هي ذي حقيبتك يا آنسة، وها هو ذا الباب، وها أنا ذا في الجانب الآخر من الحجرة، فلن أعترض سبيلك إذا شئت الانصراف.. ولكن أرجو أن تستمعي إليّ قليلاً... إن مركزي المالي قد تغيّر منذ



تركتِني بعد الغداء، فأرْهِفِي إلي سَمْعَك ولو دقائقَ قصيرة...»

فنظرت الفتاةُ في ساعتها وقالت:

- «أمنحكَ ثلاثَ دقائق لتُفْضِي إليّ فيها بما تريد فلا تضيِّع الوقت».

فبدأ «جاك» حديثه بأن قصّ عليها كيف التحق بالعمل في السُفن التي تعمل في صيد الأسماك وكيف جاء إلى «باريس» ليقضي فيها بعضَ الوقت لاهيًا متمتِّعًا بمباهجها، فلما لقيها بعث يطلبُ من صاحب السفن التي يعمل عنده أن يطيل أمدَ عطلته... فقاطعته قائلة:

- «لقد استغرق حديثُك الدَّقائق الثلاث... ثم ما شأني أنا وهذا الذي تحدثني به...» فقال:

- «أريد بذلك أن أزداد بك معرفةً ومودّة». فقالت:

- «وفيمَ هذا كله». فقال وقد صبغت خَدَّيْه حمرةُ الحياء:

- «لأني أردت أن ألتمس منك أن تصبحي زوجتي... لم أعد ذلك البحار الذي قاسى شَظَفَ العيش... لقد هبطت عليَّ الثروة... فأصبحتُ من أرباب الملايين».

فنهضت الفتاة متذمِّرَةً وقالت:

- «أما أنا فلا أريد أن أزداد بك معرفة... ثِقْ يا سيدي أنك في حاجةٍ إلى عقلك الذي فارقك... لم أكن حكيمةً في تصرُّفي إذْ قبلتُ

دعوتَك للغداء، ولست أدري ما الذي جَنَيْتُه عليك لتبادِرَني بهذا المزاح الثقيل... الوَداع يا سيّدي!»

وخرجت الفتاة ولم يستطع «جاك» أن يُبْدي حراكًا، فبقي مسمّرًا في مكانه، حتى إذا رجع إلى نفسه بعدَ قليلٍ، لام نفسه أشدّ اللوم على غباوته، وعلى الطريقة الخرقاء التي حدّث بها الفتاة فظنَّتْه معتوهًا أو سكرانَ أو مجنونًا...

وفي نحو الساعة السابعة قدم عليه صديقه «بطرس» فرآه على مثل ذلك الاضطراب فقال له:

- «ما بك يا «جاك»؟ ما هذا الاضطرابُ الذي يبدو عليك؟» فقال «جاك»:

- «تراوِدُني فكرةٌ أنا جادٌّ فيها كلَّ الجدّ، وليس لي مَنْ أعتمدُ عليه في تحقيقها سواك... أريد أن أشتري بعضَ الأسهم والسندات... أتذكر الشركة الوهمية التي أسسها والدي لاستغلال مناجم الكبريت؟» فقال «بطرس»:

- «نعم أذكر». فقال «جاك»:

- «أتعرفُ كم بيع منها من الأسهم؟» فقال «بطرس»:

- «لم يُبَعْ منها إلا السندات وبعض الأسهم». فقال «جاك»:

– «ألم يكن فيها حصص تأسيس؟» فقال «بطرس»:

– «بطبيعة الحال. ويمكنني أن أقفَ على كل هذا إذا كنت تريد أن تعرف ذلك». فقال «جاك»:

– «لا أريد أن أعرف فقط بل أن أشتري... وأعتقد أن مجموع حصص التأسيس والأسهم والسندات لا تساوي الآن شيئًا، فهي لا قيمة لها، أفتراني أستطيع شراءَها كلها بثلاثة آلاف فرنك».

فقال «بطرس»:

– «لستُ أدري... إنها الآن لا تساوي فرنكًا واحدًا، ولكن عندما نبدأ بالشِّراء فسوف يرتفع الثمن حتمًا فماذا تريدني أن أفعل إذا زاد الثمن عن هذا المبلغ الذي تحدّده؟» فقال «جاك»:

– «تصرَّفْ كما تهوى. فاشْتَرِ أوّلاً حصص التأسيس ثم السّندات ثم الأسهم إذا استطعت، وحَوِّل كل ذلك إلى اسمي». فقال «بطرس»:

– «أأكون شريكك في هذا؟» فقال «جاك»:

– «إذا رغبت ولكن الأمر لا يخلو من مجازفة». فقال «بطرس»:

– «أتعتقدُ بوجود الكبريت؟» فقال «جاك»:

– «ليس هذا الذي يهمّني... فلا تسألني فلن أجيبَ عن أسئلتك».

فقال «بطرس»:

– «حسن... فلنسدل الستار على الموضوع... سأوافيك يوم

الأربعاء القادم بالخبر اليقين، فهيًّا نتناول طعام العشاء ونقضي السهرة في بعض المسارح». فقال «جاك»:

– «حسْبُك تناول العشاء فإني في حاجة إلى النوم والراحة».

وفي الساعة العاشرة كان «جاك» مستلقيًا على سريره يفكّر ويحلُم.





٧

استيقظ «جاك» في صباح اليوم التالي مبكِّرًا، فارتدى ملابسه وسارع إلى الحيّ الذي تقطن فيه «ماري ريشارد» وركب إليه قطار المترو الذي يخترق «باريس» تحت الأرض، فنزل في المحطة التي تفضي إلى «مونروج» وأخذ يجول في رصيفها.

وفي نحو الساعة التاسعة لمح الآنسة «ماري ريشارد» مقبلةً إلى المحطة لتستقل منها قطار المترو، فهُرِع إليها وحيّاها فحيّته وبادرها قائلاً:

– «جئتُ أعتذرُ إليك يا آنسة عمّا فَرَط مني مساء أمس». فقالت الفتاة وهي منخفضة الرأس:

– «بل عليّ أنا أن أعتذر عمّا بَدَر مني من كلماتٍ قاسية. فاقبلْ

معاذيري يا سيدي... والآن أستودعك الله».

وما كادت تتم عباراتها حتى قفزت إلى قطار المترو الذي كان قد بدأ يتحرك.

ولم يغضب «جاك» من تلك المقابلة وذلك الوداع المفاجئ، بل رضى من الفتاة بالاستماع له واكتفى بذلك نتيجةً سارة.

وصَعِدَ «جاك» من محطة المترو واتّجه إلى حيّ «مونروج» فوقف عند المنزل المرقوم برقم ١ «من شارع جان رولان» وكان يتألف من طبقتين، وتحيط به حديقة واسعة، فَقَرَعَ الباب ففتحته له خادمةٌ صغيرة فقال لها:

– «أعندكم يا صغيرتي حجرةٌ للإيجار؟»

فأدخلته الخادمة إلى بهوٍ أشبه بمرسم، فلقى فيه صاحبة المنزل وكانت سيّدة عبلة الجسم سَمْحَة الوجه، فأدارت فيه نظرها فاحصةً ممتحنة فنجح «جاك» في الامتحان وسمعها تقول له:

– «عندي غرفةٌ في الطبقة الأولى».

فاستأجر «جاك» الغرفة دون أن يراها، واتفق مع صاحبة المنزل على الانتقال إليها في يوم الاثنين المقبل، ثم ودّعها والفرحُ يُقيمه ويُقْعِده على أن أصبح جارًا لحبيبته «ماري ريشارد».

وفي أثناء عودته اشترى بعض صحف الأزياء، وقضى ساعاتٍ يتصفحها

ويقرؤها على أمل أن يرى فيها توقيع «ماري ريشارد».

كان اليوم يوم سبت، حتى إذا كانت الساعة السابعة من صباح يوم الاثنين انتقل «جاك» إلى مسكنه الجديد، فلقى في البهو «ماري ريشارد» وهى تلبس قُفَّازها، فامتعضتْ عندما رأته، فاقترب منها وحيَّاها وقال:

– «نعم. أنا هو. لقد أصبحتُ جارك بعد إذ عرفتُ عنوانك، فاسمحي لي أن ألقاك حينًا بعد حين». فقالت:

– «إن هذا هو الاضطهاد بعينه يا سيِّدي!» فقال:

– «كلا. إنك لم تفهميني في ذلك اليوم... حَسِبْتِني سكرانَ أو مجنونًا، وما كنتُ لا هذا ولا ذاك، وإنما كنتُ ثائرَ الأعصاب قليلاً مهتاجًا من الحظّ الحسن الذي هبَط عليّ... فاعذري سماجتي».

فلم تَنْبِس الفتاةُ بِبِنْتِ شَفَة فقال لها:

– «توسلتُ إليك أن تُنْقضيني من حياتي الجوفاء الفارغة». فقالت:

– «أنا؟ وكيف أنقذك؟» فقال:

– «بسماحِك لي أوّلاً أن أصبح صديقك إلى اليوم الذي ترضينني لك فيه زوجًا».

كانت الصَّراحة باديةً على كلّ مَقْطَع من مقاطع كلماته، وظاهرةً في صوته المرتجف ونظرته البريئة، فأدركت الفتاة أنَ محدِّثها ليس من الشباب العابثين فقالت له:

– «لا أرى كيف أستطيعُ أن أنقذَك من الحياة التي تَصِفُها... وهبْني رضيتُ بذلك فلي عليك شرطٌ لا أَحِيدُ عنه... وهو أن لا تحدِّثني أبدًا في الزّواج... فلستُ راغبة فيه». فقال «جاك»:

– «ولماذا؟» فقالت:

– «لأنيّ أوّلاً لا أرى فيك الزوجَ الملائم، فمظهرك إن دلَّ على القوة والبأس، فمخبرك يدل على نقص في الإرادة... ثم إنك أسمرُ البشرة وأنا إن تزوّجتُ فلن أتزوّج إلا رجلاً أشقر».

فاقتنع «جاك» بما سمع وصافحها فانصرفت.

وكثر عددُ الأيام التي كان «جاك» يلقى فيها «ماري ريشارد» فدعاها ودعا معها صاحبة المنزل غير مرّة إلى سماع الموسيقى أو شهود التمثيل، فاستردّ بصحبته لها وحديثه معها ما كان قد فقده من عادات المجتمع الرفيعة، وقَدَّرَتْهُ هى حقَّ قَدْره فمالت إليه وأعجبتْ به، وأخذت تستمعُ لأحاديثه في نشوة ومتعة روحية كبيرة.

وتلقَّى «جاك» ذاتَ يومٍ رسالةً من صديقه «بطرس» يدعوه فيها إلى لقائه، فذهب إليه فأخبره «بطرس» أنه كان للشركة ٢٠٠ حصة تأسيس، وأنه اشتراها كلها بلا ثمن. فسأله «جاك» عن واقعة الحال فقال:

– «كنت مدعوًّا ذات ليلة عند السيدة «دوبريف» فلقيت هناك سمسارين من سماسرة القراطيس المالية، فجاء ذكرك عَرَضًا فاغتنمتُها

فرصة تكلمتُ فيها على الشركة الوهميّة لاستغلال مناجم الكبريت، وعلمت أن لدى كل من السمسارين مئة حصة تأسيس فسألاني هل من جديد في الأمر؟ فقلت لا أعلم. فرضيا أن يلاعباني عليها بالوَرق فكسبتُها وها هي ذي».

واتجه «بطرس» إلى خزانة في مكتبه، واستخرج منها تلك الأوراق وقدمها إلى «جاك». فشكره «جاك» شكرًا جزيلاً ثم سأله: والسندات؟ فقال:

– «هناك مئة سند اكتتب بها كلها الربان العجوز، أما الأسهم فلم يُبَعْ منها إلا ٢٣ سهمًا اشتراها أيضًا ذلك الربان». فقال «جاك»:

– «وفي حوزة مَنْ هذه السندات والأسهم؟» فقال «بطرس»:

– «في حَوْزة ابنةِ الربان العجوز، وهي فتاةٌ على ما قيل لي تكسبُ رزقَها من عملها». فقال «جاك»:

– «وهل تقطن «باريس»؟» فقال «بطرس»:

– «أجل. وسأعرف غدًا عنوانَها». فقال «جاك»:

– «أيخالجك الأملُ في الحصول على هذه الأوراق؟» فقال «بطرس»:

– «أعتقدُ ذلك. فثلاثةُ آلاف فرنك أجْدَى عليها من أوراقٍ لا قيمة لها الآن. إن اسم هذه الفتاة...»

فقاطعه «جاك» قائلاً:

- «لا تَفُه باسمها... إني نسيتُ اسمَ والدها... ولا أرغبُ في معرفة اسمها... دَعْها في عالَم الظلام... على أنَّنى أوَدُّ أن أبذلَ لها أكبر قسط من العون ما دامت فتاةً بائسة... فإني مستطيعٌ متى عدتُ إلى عملي أن أدَّخر في هذا العام ألفين من الفرنكات، فيمكنك إذن أن ترفعَ لها المبلغ إلى خمسة آلاف فرنك... ثلاثة آلاف للسندات وألفين للأسهم تُدْفَعُ جميعها على قِسْطين». فقال «بطرس»:

- «حسن... عُدْ إليّ يوم السبت تجدْني على الأرجح قد ظفرتُ بهذه الأوراق».

وسكت «بطرس» قليلاً ثم قال:

- «نسيتُ أن أخبرك أنْ السيدة «دوبريف» متضايقةٌ من سكوتِك عنها وانقطاعك عن زياراتها، فقد ذهبتْ تزورك يومًا فقيل لها إنك انتقلتَ إلى مسكن آخر، وهى ترغب في معرفة عنوانك الجديد».

فقال «جاك»:

- «قل لها إنك تجهل عنواني، وقل هذا أيضًا لجميع الرفاق». فقال «بطرس»:

- «لكَ ما تريد».

وخرج الصّديقان يتناولان الطعام معًا، وقصَ «جاك» على صديقه

في أثناء تناول الطعام قصّة حياته على ظهر السفن وفوق مَتْن البخار، ثم افترق الصديقان على وَعْدٍ بلقاءٍ قريب.

ولم يدرِ «جاك» سببًا يحدو السيّدة «دوبريف» إلى أن تسأل عنه وتزوره في منزله، وأنَّى له أن يدري أن وكيل أعمالها قد أثار ظُنونها لما عَلِمَ بحصُول «بطرس» على حصص التأسيس وسعيه للحصول أيضًا على السندات والأسهم، وأنه أدخل في روعها أن وراء الأكمة ما وراءَها.

والواقع أن السيدة «دوبريف» عندما أنهى إليها وكيل أعمالها بظنه وريبته، تذكرت زيارة «جاك» لها منذ أيام وتذكرت معها الحديثَ الذي دار بينه وبين الشابّ العالم بطبقات الأرض حينما أراه قطعة الدَّهْنَج التي كانت في جيبه، فأيقنت تمَام اليقين أن «جاك» كان قد رحل إلى «إسلندة»، وعايَنَ أرضَ المناجم، وأجرى عليها بعضَ الأبحاث. وتأكد من غناها بالكبريت، فجاء يجمع أوراقَ تلك الشركة، فَعَهَدَ إلى صديقه «بطرس» في القيام بذلك، وبقي هو متواريًا خلف الستار.

وأرسى هذا الاستنتاج في ذهنها انقطاع «جاك» عن زيارتها وزيارة أصدقائها الذين عرفهم، وهجرانُه منزلَه إلى عنوانٍ مجهول، فآلتْ على نفسها أن لا تفوتَها هذه الفرصة الذهبيَّة، وأن تسعى إلى معرفة الشخص الذي يمتلكُ أسهمَ الشركة وسنداتِها لتشتريَها منه.

واتفق أن كان «جاك» يومًا في أحد المقاهي، يشْرَبُ القهوة ويطالع الصُّحُف انتظارًا للموعد الذي ضَرَبه للآنسة «مارى ريشارد» في المطعم

الهولندي، فقد كان دعاها لتناولِ طعام الغداء معًا، بعد أن تَفْرَغ من مهمتها في دار الكتب الوطنيّة، فرمى «جاك» بنظَره عَفوًا إلى مِنْضَدة قريبة منه، فرأى السيدة «دوبريف» تحدث سيدةً أخرى إلى جانبها، فالتفتْ نظراتُه بنظراتها، فنهضت هى على الفور وأقبلتْ عليه تحيِّيه وتقول له:

– «أأصبحنا لا نلقاك يا سيِّد «جاك» إلاّ في المقاهي؟!»

فتبسَّم «جاك» ابتسامةً مُغْتَصبة، في حين جلست السيّدة «دوبريف» وقالت له:

– «متى رجعت؟» فقال «جاك»:

– «لم أرحل قط عن «باريس».» فقالت:

– «فلماذا إذن احتجبتَ وانقطعتَ عن زيارتي، وأنت تعلم أني سعيتُ إليك في منزلك». فقال:

– «لا. لستُ أعلم. لقد انتقلتُ إلى منزلٍ آخر». فقالت:

– «وأين تقطن الآن؟» فقال:

– «في إحدى الضَّواحي». فقالت:

– «في أيَّة ضاحية؟»

فالتزم «جاك» الصمت، فقالت مستأنفة:

– «أصبحت يا سيِّدي البحّار رجلاً تكتنِفُه الأسرار... ألم تخبر

صديقك «بطرس» بعنوانك الجديد؟» فقال:

– «وهل سألتِه إيَّاه؟» فقالت:

– «نعم. هل رأيتَه يومَ الأربعاء الماضي؟ هل نجح في الحصول على جميع السندات؟»

فاضطرب «جاك» ولكنّه تملّك عواطفه وقال:

– «أيّة سندات؟» فقالت:

– «سندات مناجم الكبريت «بإسلندة»...»

فعاود «جاك» الاضطراب، فلمحت اضطرابه وقالت:

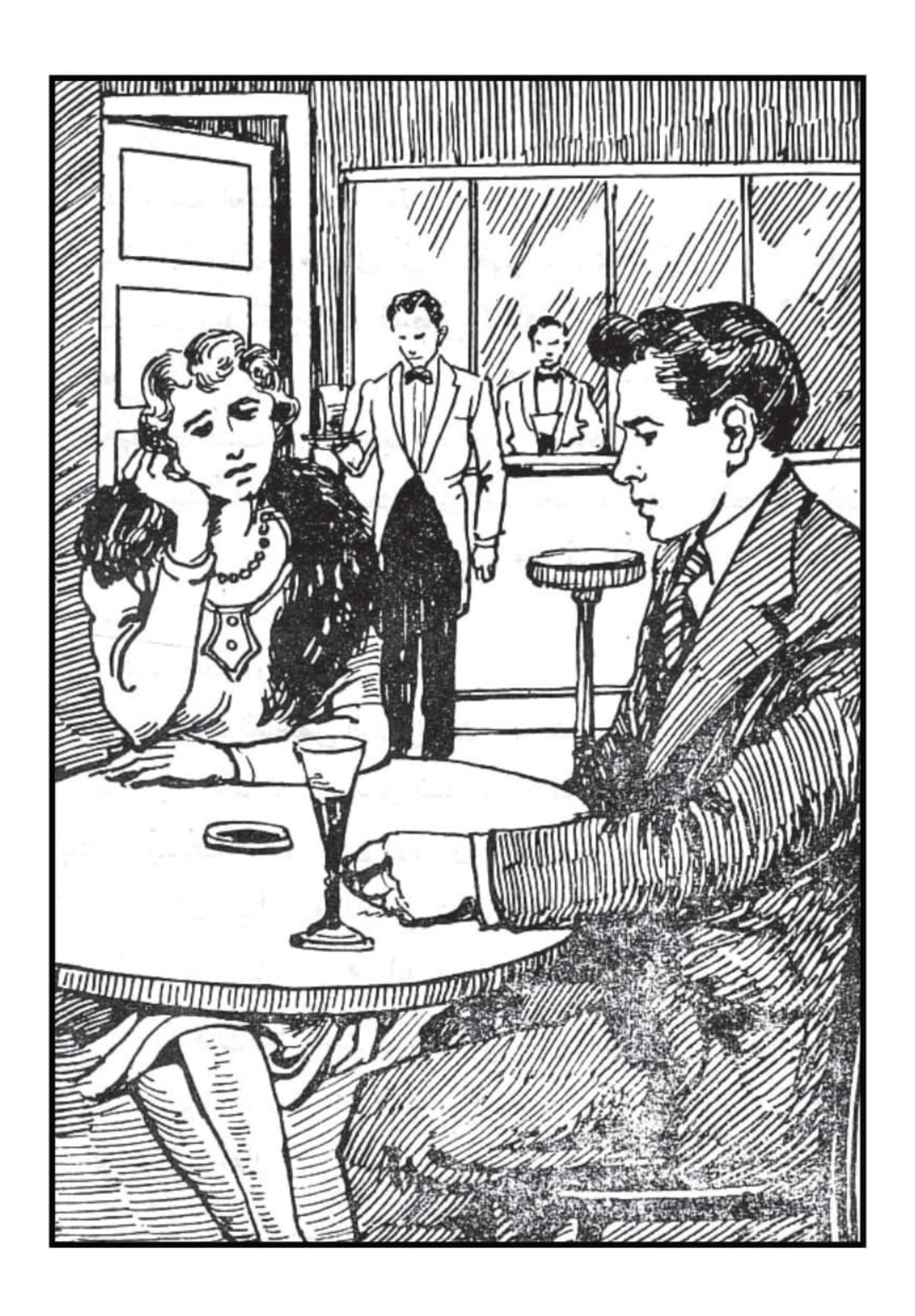
– «دعْ عنك التجاهل... إني أحدِّثك عن المناجم التي ترومُ أن تستخرج منها أطنان الدِّهْنج...»

فطوى «جاك» الصحيفة التي كان يقرؤها وقال:

– «ما هذا الذي تحدّثينني عنه يا سيدتي؟» فقالت:

– «أحدِّثك عن الدَّهْنَج... عن المادة المركّبة من الكبريت والنحاس... أتذكر تلك القطعة الخضراء الزرقاء التي جئت بها من مناجم «إسلندة»، تلك التي ظفر لك منها صديقك «بطرس» بحصص تأسيسها؟... لقد كان صديقك ماهرًا حَذِقًا..»

فلم يحر «جاك» جوابًا، ولا شاء أن يشاركها في الحديث فاستأنفت تقول:



– «إنك رجلٌ قويّ... وإنك لترى في النساء أنّهن لا يَصْلُحْن لجلائل الأعمال... ولكنني سأريك أني لست على ما حسبتني عليه من البَلاهة وخفّة العقل...» فقال «جاك»:

– «أؤكد لك يا سيّدتي أني لا أفهم كلمة مما تقولين... إن خيالك يخونك... وعلى كل حال فعُطلتي تكاد تنتهي وسأعودُ بعد أيام قليلة إلى عملي...»

فنهضت السيّدة «دوبريف» وقالت له وهي نصرفة:

– «جئتُ أعرضُ عليك عوني ومساعدتي فأبيتَ، ولسوف يدفعني إباؤك إلى الانضمام للمعسكر الثاني... فأنتَ وشأنَك!»

وبعد دقائق معدودات، كانت السيدة «دوبريف» في مكتب وكيل أعمالها فحيته وسألته قائلة:

– «أعرفتَ الشخص الذي يمتلك سندات مناجم الكبريت؟» فقال:

– «إن المكتتبَ الوحيد في هذه الشركة قد تُوُفّي تاركًا تلك الأوراق لابنته، ولسوف نظفَرُ بتلك الأوراق قبل مضيّ أسبوع... ولما كانت لا تساوي الآن شيئًا، فسأعرض شراء السند الواحد منها بعشرة فرنكات وإن يكن سعره الأصلي خمسمائة فرنك». فقالت:

– «أراهنك على أنك لن تحصلَ عليها ولو بخمسين فرنكًا... ما أغباكم أيها الرجال! سأساعدك في الحصول عليها، فكم يكونُ نصيبي من الربح؟» فقال:

– «أيكفيك عشرة في المئة؟» فقالت:

– «بل عشرين». فقال:

– «اتفقنا». فقالت:

– «اعلم أن أرضَ هذه المناجم غنيّةٌ بالدَّهْنَج، ولذلك يسعى السمسار «بطرس» في شراء الأوراق لحساب «جاك» فعجِّل إذا شئت أن تفوز بها وإلا خسرتَ السّباق».

وفي تلك الساعة كان «جاك» و «ماري ريشارد» يتناولان طعام الغداء في المطعم الهولندي، وعينا كلٍّ منهما تفحصان للآخر عما يختلج في الفؤاد من شعورِ الحبّ العميق...



٨

في صباح اليوم التالي اجتمع «جاك» و «ماري» في بَهْوِ المنزل، فتصافحا وتبادلا تحيّة الصباح، وأعلمته أنها ذاهبة لبعض شأنها، ورجَتْ منه أن يقابلها في نحو الساعة العاشرة في إحدى الحدائق العامّة فلديها ما تقولُه له.

وفي الموعد المضروب، كانا منتحيَيْن ناحيةً منعزلةً من الحديقة، وجالسَيْن في أحد المقاعد العامّة ينظران في سكوتٍ إلى عُصْفور صغير يتنقل بين أقدامِهما، باحثًا بمنقاره عن بعض الفُتات يتبلَّغُ بها، ثم تركهما وطار في الفضاء. وقطعت «ماري» حبلَ الصَّمْت قائلة:

– «ما أغْرَب هذه الحياة وما أكثر مفاجآتها! لقد حدَّثْتَني منذ أسبوع حديثًا عابرًا عن ثروةٍ هبطتْ عليك... وها أنا ذي تهبطُ عليَّ أيضًا ثروةٌ لم تكن بالحسْبان... إنها مبلغُ عشرة آلاف فرنك... انظر أوّلاً في هذا».

وأخرجتْ من حقيبة يدها كتابًا قدّمته إليه، فنظر فيه «جاك» فإذا هو كتابٌ من صديقه «بطرس» إلى الفتاة يعرض فيها عليها شراءَ السندات التي تمتلكها من مناجم الكبريت.

فغام الأفق في عيني «جاك»، ونهض من مكانه، واستند إلى شجرة قريبة منهما وقال بعد لأى وجهد في ألمٍ ظاهر ونفسٍ معذّبة:

– «إذن أنت هى!»

فنظرتْ إليه مشدوهةً مذهولة، وهى لا تدري ماذا أصابه، أما هو فقد أخذ العَرَقُ الباردُ يتصبَّب من جبينه... ذلك أن رسالةَ صديقه «بطرس» جاءت تحطّم حلمه الجميل. فقالت الفتاة له:

– «ما بك يا سيّد «جاك»؟ ماذا أصابك؟ قل... أفصح...»

حاول «جاك» الكلام فلم يستطع، فتوسلت إليه أن يخبرها بما يشكو منه فقال بعد صراعٍ نفسيٍّ كبير:

– « لا شئ... لا تقلقي يا آنسة... إني مضطرب قليلاً... لا تجزعي... فسوف أقولُ لك ماذا أصابني...»

وكانت الفتاةُ قد نهضت من مقعدها واقتربت منه فقال لها:

- «اجلسي في مكانك يا آنسة... سأتمشّى قليلاً على مرأى منك... فإني في حاجة إلى الانفراد بنفسي...»

وذهب يتمشّى فلم يكد يخطو نحو عشرين خطوة، حتى لَمَعَ في ذهنه بريقُ خاطرٍ من الخواطر فعاد إلى الفتاة وسألها قائلاً:

- «قلت لي: عشرة آلاف فرنك... والرسالة التي أطلعتني عليها تعرض عليك ثلاثة آلاف فقط من الفرنكات».

فقدّمت إليه رسالةً أخرى، فاختطفها منها وابتعدَ عنها، ولما أصبح على بُعْد خطوات من الفتاة فتح الرسالة وعلم منها أن أحد سماسرة القراطيس المالية يعرض عليها عشرة آلاف فرنك ثمنًا لما تمتلك من سندات... فحزن «جاك» كل الحزن على حلمه الذي تلاشى، فاستدار ينظر إلى الفتاة فرآها واقفةً في مكانها تنظر إليه وتنتظره، فعاد إليها وقد عَزَم على أن يستمع لنداء الواجب، فابنةُ الرجل الذي سلبه أبوه ماله، وكان سببًا في وفاته، لا يمكن أن تصبح زوجته، فما عليه إذن إلا أن يقطع صِلَته بها ويصارحها بالحقيقة، وعزم كذلك على أن يطير إلى «إسلندة» ويعاودَ فحص المناجم ليعلمَ ويتأكد أحلمٌ جميل هى أم حقيقة راهنة، ويكفيه بعد ذلك أن يبرق إلى صديقه «بطرس» فتكون تلك البرقيّة الحدّ الفاصل بينه وبين الفتاة. فلما صار على مقربة منها قال:

- «اعذريني يا آنسة على ما بدا مني... سألتِيني رأي فيما هو

معروض عليك، وسأنهي إليك به مشترطًا أن تنفذيه بالحرف الواحد، فهل تَعِدِينني بذلك؟» فقالت:

– «ولماذا؟» فقال:

– «سأشرحُ لك كلّ شئ... تعلمين أني أعرف «إسلندة»... وهذه العروض تدل على أن تحت الصخور ثروة... فإياكِ أن تبيعي سندًا من السندات التي في حَوْزتِكِ... وسأخبر صديقي «بطرس» وهو شريك السيد «أرمان» بالأمر، ولك أن تثقي به وتتَّخذيه مستشارَك... إني مضطر أن أسافر في هذا المساء، فصاحبُ السفن الذي أعملُ عنده يدعوني إليه... ولم... ولم... أجد الفرصة المواتية لأخبرك بذلك.... و«بطرس» صديق حميم لي فيمكنك أن تعتمدي عليه كلَّ الاعتماد.... لا تبيعي سنداتِك بأي ثمن من الأثمان قبل شهر واحد على الأقل... واتّبعي ما يشير به عليك صديقي «بطرس»...» فقالت الفتاة:

– «لا أفهم ما تقول... فهذا السيّد الذي يعرضُ عليّ شراء السندات بعشرة آلاف فرنك...» فقاطعها قائلاً:

– «لا تبيعي... لا تبيعي... اطبعي في ذاكرتك كلَّ ما أقوله لك...» فقالت:

– «حسن... سأتَّبع نصحك... لن أبيعَ السندات قبل مضي شهر على الأقل... سأنفِّذ ما يشير به عليّ صديقك «بطرس»...

أهذا كل ما تريد أن تقوله لي؟» فقال:

- «هذا كل ما أريد أن أقول، فعِدِيني أن تتَّبعي نصيحتي...» فقالت:

- «ولكن لماذا لا تريد أن تفسر لي هذه الأحاجي والألغاز؟» فقال:

- «الأشياء مرهونةٌ بأوقاتِها... ستعلمين كل شئ... اقطعي لي الوعدَ باتِّباع نصيحتي...» فقالت:

- «أعِدُك». فقال:

- «إذن أستودعك الله... عذرًا إذا أنا فارقتك على مثل هذه الحال المفاجئة... فلابدّ من الرحيل ولن أستطيعَ البقاء دقيقةً واحدة بعد الآن...»

وكان وجهه قد امتقع وكُسِيَ بصُفرة الأموات فقالت له:

- «أألقاك في المنزل هذا المساء؟» فقال:

- «كلا يا آنسة... لا هذا المساء ولا غدًا ولا أي وقت آخر... كلمة واحدة تطلعك على السبب... فاعلمي يا آنسة أني ابنُ الرجل الماليّ «ريمون أفريل» الذي كان السبب في خراب أبيك... فالوّداع يا آنسة!!!»

اضطربت «ماري ريشارد» عند سَماعها هذا البيان، فلم تردّ على

تحية الوداع فتركها «جاك» وسار محطَّم القلب ممزَّق الشعور، فذهب إلى منزله وحزم حقائبَه ثم غادر المنزل إلى مكتب صديقه «بطرس» وقال له:

– «جئتُ يا عزيزي «بطرس» أطلبُ إليك أن تسحب عرضك الخاص بشراء سندات مناجم الكبريت.» فقال «بطرس»:

– «سبق السيفُ العذلّ يا صديقي... فالجوابُ لابُدَّ أن يكون في طريقه إليّ بالبريد». فقال «جاك»:

– «كلا.» فقال «بطرس» مدهوشًا:

– «كيف كلا... وما أدراكَ أنت؟» فقال «جاك»:

– «هناك سمسار يعرضُ عشرة آلاف فرنك». فقال «بطرس»:

– «وكيف عرفتَ ذلك؟» فقال «جاك»:

– «لا تسأل عن ذلك... فإليك جلية أمري على شرط أن تَعِدني بكتمان السرّ». فقال «بطرس»:

– «سرُّ المهنة قبل صداقةِ الأصدقاء». فقال «جاك»:

– «أنا راحل إلى «إسلندة» لأفحص صخور تلك المناجم فحصًا دقيقًا، وأعلم قيمة الدَّهْنَج الذي يستخرج منها... والآنسة «ريشارد» (أترى أني أعرف اسمها) ستجيء إليك غدًا أو بعد غد وتستشيرك في أمر بيع تلك السندات، فأوعزْ إليها أن لا تبيعها الآن بأيّ ثمن من الأثمان، وسأبرق إليك بنتيجة أبحاثي، وفي ضوء تلك البرقية يمكنك أن تنصحها

بما ترى، وحاذِرْ أن تلفظ اسمي». فقال «بطرس»:

– «ولماذا؟» فقال «جاك»:

– «ستعرف ذلك فيما بعد... فالسمسار الذي ينافسنا هو وكيل أعمال السيدة «دوبريف» وقد كان السبب في إخفاقي، فعلينا أن نحترس منه ونعمل على أن يُخْفق في مهمته». فقال «بطرس»:

– «فهمت... ولكن كيف علمت السيدة «دوبريف» بالأمر؟» فقال «جاك»:

– «استنتجتْ وصحَّ استنتاجُها... أرهف إليّ سمعك: إذا أبرقتُ إليك قائلاً «تمسّك» فعليك أن تهدي حصص التأسيس التي لديك إلى الآنسة «ماري ريشارد»، وإن أبرقتُ إليك قائلاً «تخلص مما عندك» فعليك أن تحرق تلك الحصص وترمي بها طعمة للنار... الوَداع يا صديقي».

صافح «جاك» صديقه وغادر المكتب، فأرسل رسالةً عاجلة إلى صاحبة المنزل يرجو منها أن تحتفظ لديها بحقائبه حتى تتلقى منه رسالة أخرى، واستقلّ في المساء القطار إلى الميناء الذي سيركب منه السفينة إلى «إسنلدة» وعبثًا حاول أن يُغْفى ولو إغفاءةً قصيرة، فما عرفت عيناه إلى النَّوْم سبيلاً، وكانت نفسه نهْبًا للأفكار تتوالى عليه موصولة الماضي بالحاضر والمستقبل، وكثيرًا ما فكر في الآنسة «ماري ريشارد» وأسِف على فِقْدانها وعزّى نفسه عنها داعيًا لها بالسعادة في حياتها. وفي صباح اليوم التالي وصل القطار إلى ميناء «سان بريوك» فنزل منه «جاك»

ومضى توًّا إلى السيد «هارفر» فاستقبله هذا قائلاً:

– «لماذا عدت قبل انتهاء عُطْلتك؟»

ولمّا حدّق فيه ولحظ ما هو عليه من اصفرار قال له:

– «ماذا حدَثَ لك يا عزيزي؟ ما هذه السحنة الصفراء المضطربة؟»

فافترَّتْ شفتا «جاك» عن ابتسامة مصطنعة وقال:

– «نعم إني متعب فقد قضيتُ طول الليل في القطار يقظان سهران». فقال «هارفر» مُغْضبًا:

– «جئتَ لا شكَّ تطلب مني أمرًا من الأمور فما هو؟» فقال «جاك»:

– «جئتُ ألتمس منك أن تسلِّفني إحدى سفنك الصغيرة السريعة». فقال «هارفر»:

– «ولماذا؟» فقال «جاك»:

– «يجبُ أن أذهب إلى «إسلندة» وأعودَ منها سريعًا... يهمني أن أصل إليها قبل السفينة التي تغادر مياه «دنكرك» يوم الأربعاء المقبل». فقال «هارفر»:

– «اطلب إذا شئتَ جميع سفن أسطولي فأنت تعلم كم أحِبُّك وأعزُّك». فقال «جاك»:

– «شكرًا لك يا سيدي، على أنه تكفيني سفينة واحدة... فالمسألة

التي أسعى من أجلها جليلة الشأن... وسوف أدفع لك ثمن الفحم وأجورّ البحارة». فقال «هارفر»:

– «أمَّا الحسابُ فسوف نسويه بيننا... وأمَّا السفينة فماذا أنت صانع بها؟... صارِحْني في القول أو اطرق باب سواي». فقال «جاك»:

– «يعِزُّ عليَّ يا سيد «هارفر» أني لا أستطيع أن أبوحَ لك بالسر».

شقّ على «جاك» أن يلقى تلك المعارضة من جانب «هارفر» فلابدّ له من إقناعه وحَمْله على الرضى، فلو اتَّخذ في السفر إلى «إسلندة» الطريق العادي لسبقه إليها أعوان السيدة «دوبريف» فعاود الكرة وقال:

– «يتعذَّر عليّ يا سيِّدي أن أفضي إليك بسبب الرحلة، فلست أملك سرَّها وحدي، فناشدتك الله يا سيدي إلا ساعدتني فيما أطلب!» فقال «هارفر»:

– «لن أجيبَك إلى طلبك ما لم تَبُحْ لي بسرّ المسألة».

وعرف «جاك» أن «هارفر» عنيد جبار، وأنه لن يستطيع التغلُّب على عناده فقال له:

– «المسألة يا سيِّدي... هى أن... ولكن عِدْني بكتمان السرّ». فقال «هارفر»:

– «أعِدُك وعدًا قاطعًا بكتمان السرّ، فأنت تعلم أني رجلٌ أفي بوعدي

وعهودي، أما السفينة فلا أعِدُ بها حتى أعرفَ السبب ويروقني». فقال «جاك»:

– «أتذكر أنك بعتَ بعض الأرضين في «إسلندة» إلى والدي؟» فقال «هارفر»:

– «نعم أذكر ذلك». فقال «جاك»:

– «أوَتَذكر أن الغلام «جيّوم» قد مات في أثناء رحلة من رحلاتنا إلى تلك الأصقاع، وأني نزلتُ إلى البرّ لأشرف على دفنه؟» فقال «هارفر»:

– «نعم أذكر ذلك». فقال «جاك» مستأنفًا:

– «فلما انتهيتُ من مراسيم الدفن، عرفتُ أن الهضابَ القائمة وراءَ القرية هى التي كنتَ أنت قد بعتَها فجُلْستُ فيها وأخذتُ منها قطعةً صغيرةً من الصخر ظننتُها من السَّوائل المتجمدة التي تقذفها البراكين وها هى ذي».

وأخرج «جاك» قطعة الصخر وقدمها إلى «هارفر» ففحصها هذا وصاح مدهشًا:

– «إنها وحقِّ الآلهة من الدَّهْنَج!» فقال «جاك»:

– «ولقد اجتهدت وأنا في «باريس» أن أشتري القراطيس الخاصَّةَ بشركة مناجم الكبريت، ولكننى لم أحْسِن صُنعًا ولا اتخذتُ سبيلَ الرزانة إلى ذلك، فارتفعت الأسعار ولم يكن لدىَّ المال الكافي لأعقد

صفقةَ الشراء، وأظفر بجميع الأوراق، فعزمتُ على أن أعاود البحث في طبيعة تلك الأرض قبل أن أعمِد إلى أيّ أمر من الأمور.. يهمُّني أن أصل إليها قبل أولئك الذين سوف يقصدونها بالطريق العادي، فهل فهمتَ قصدي؟» فقال «هارفر»:

– «فهمت... ولكن أواثق أنت بالعثور على الدَّهْنَج؟» فقال «جاك»:

– «كلَّ الثقة. فحسبك أن تعرضَ هذه القطعة على أحد رجال الكيمياء...» فقال «هارفر»:

– «ومن يمتلك الآن أسهم تلك الشركة؟» فقال «جاك»:

– «ابنة الرّبان الذي خدعه والدي». فقال «هارفر»:

– «خَدَعَ أبوك الربّان وتريد أنتَ الآن أن تخدع الابنة! إن هذا النَّعْلَ من ذاك الأديم... لا. لن تظفر بسفينتي».

تضايق «جاك» من إصرار «هارفر» على الرفض ومن تعنّته وفضوله فقال له:

– «يجب عليّ إذن أن أفضي إليك بكل شئ... بكل ما أجتهد أن أنساه... أما أن أخدَع هذه الفتاة فكلاًّ وألف مرة كلاّ، فهى أعزّ مخلوقٍ على نفسي في هذه الحياة! لقد أحببتُها حبًّا جمًّا قبل أن أعرف من هى».

وقصّ «جاك» على «هارفر» قصّته مع الفتاة، وأوجز ما أمكنه الإيجاز، وأطلعه على الاتفاق الذي عقده مع صديقه «بطرس» وكان «هارفر» يستمع إليه ويؤمِّنُ بحركاتٍ من رأسه على كلّ ما فعل فقال له:

– «حسن يا بني... سأدفعُ إليك بالسفينة «أليصابات الشابة» فهى أسرع سفينة على وجه الماء».

فشكره «جاك» وتسلّم منه رسالةً إلى ربان السفينة، فطار بها إليه، فلما وصل إلى السفينة كان الربان غائبًا، واتفق أن كان «يوسف منزي» بين بحارة السفينة، فحياه «جاك» فلم يردّ على تحيته وطلب «جاك» منه أن يوصل الرسالة إلى الربان حيث يكون، فقال له «يوسف منزي»:

– «أنا لستُ خادمَك يا هذا...»

فما كاد «يوسف منزي» يُتِمُّ عبارته حتى كانت قبضة «جاك» تلطمه لطمةً عنيفة فوق حاجبه، فترنَّح من هَوْل الضَّرْبة فقال له «جاك»:

– «لم تَرَني منذ زمن طويل أيُّها الحيوان! أنسيتَ سيّدك... تقولُ إنك لست خادمي فنفّذ ما آمرك به وإلا فالويل لك».

سارع «يوسف منزي» يحملُ الرسالة إلى صاحبها وعاد بعد نصف ساعة يقول لهُ إن الربان مشغول، وإنه سيبقى عدة أيام في المدينة، فلن يبحر بالسفينة قبل ذلك. فقال «جاك» على مسمعٍ من البحارة:

– «لقد اتفقتُ مع «هارفر» على كل شئ، فإذا كان الرّبان مشغولاً فسأكون أنا الرّبان».

ووزّع «جاك» أوامره على الرجال، وذهب إلى مخدع الربان فغيّر ملابسه، وبعد نحو ساعة جاءه نفرٌ من الحمَّالين يحملون عدة صناديق ومن بينها صندوق كبير كان قد جلبه معه بالقِطار، فأوصى رجاله أن ينقلوه إلى حيثُ أراد، وحذَّرهم من العبث به فهو مملوء بالديناميت.

وعند الأصيل، كانت «أليصابات الشابة» تسيرُ متهاديةً على صفحات الماء، فما كادت تجري نحو مئة متر حتى تذكر البحارة أن السفينة خاليةٌ من الزَّاد، فحاول أحد البحارة أن يقفز إلى الماء ويسبح إلى الميناء، فبصر به «جاك» وخفَّ إليه فأمسك به ورماه إلى سطح السفينة، كما يرمي الغلام كُرةً صغيرة، وتصايح البحَّارة طالبين العودة إلى الميناء فزجرهم «جاك» وقال:

– «إن خُلُوَّ السفينة من الزاد سيجعلكم تَنْشطون للعمل والإسراع فيه... إننا ذاهبون إلى «إسلندة» وهناك ستأكلون وتشربون... ألا يستطيعُ الرجال أن يمكثوا عدّة أيام بلا طعام؟!»

فزَمْجَر البحارة وأقبلواً عليه متوعدين، فطار صواب «جاك» وانقضَّ عليهم جميعًا يكيلُ لهم الضربات القوية ويضرب أحيانًا واحدًا بواحد. أما «يوسف منزي» فلم يشترك في التمرد فما كان قد نَسِيَ طعْمَ ضربات



«جاك» وكان يقولُ لزملائه: ويحكم إنكم تتحدّون «المطرقة» إن «جاك» مِطْرَقةٌ من الحديد. واضطَّر البحارة إلى الإذعان والخضوع، فلما هدأت ثائرتهم قال لهم «جاك»:

– «ويحكم أيُّها الأوباش! إن السفينة مملوءة بصناديق الزّاد، ولكنني أردتُ أن أمتحن رجولتكم».

فقهقه البحَّارة ضاحكيم مِلْء أشداقهم وصاحوا: عاش «جاك المطرقة»! عاش «جاك المطرقة».





٩

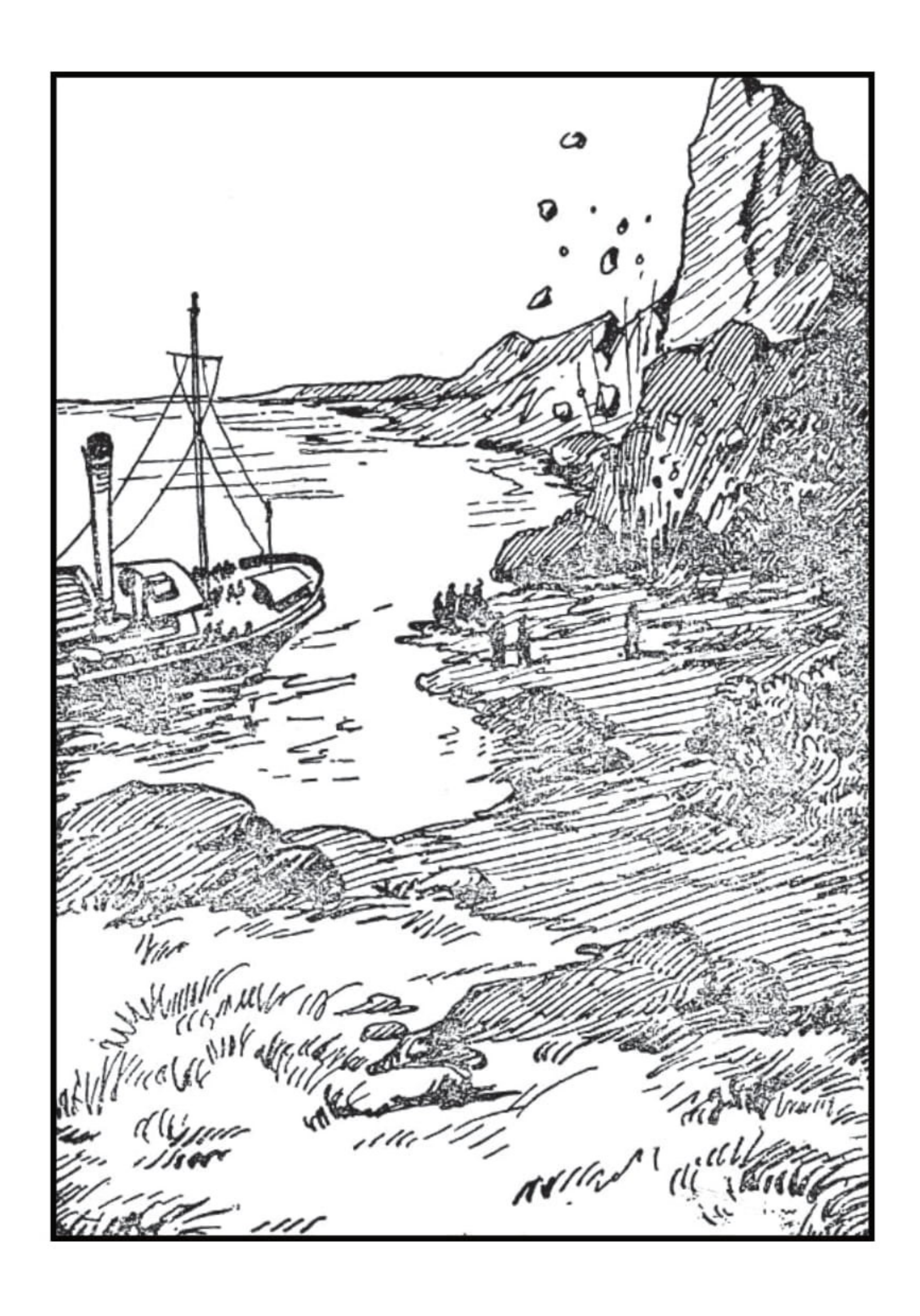
جدّت السفينة في سيرها، واستمرّت عدّة أيام تجري بأقصى سُرْعتها، مغالِبةً الأنواء مصارعةً عَتيّ الأمواج، حتى وصلت إلى الشاطئ الذي يقصده «جاك» فألقت مِرْسَاتها على بُعْدِ ميلٍ منه. ودب النشاط في نفوس البحارة فعملوا جاهدين مُسْرعين، فأنزلوا إلى البحر قاربين نقلوا إلى الأوّل منهما صندوقَ الديناميت، فعَهدَ «جاك» في حراسته والوصول به إلى الشاطئ إلى اثنين من البحارة المَهَرة الأقوياء، وركب هو القارب الثاني من أربعةٍ من رجاله، وسارت القافلة إلى الساحل، فوصلت إليه بعد عناء شديد.

وتضافر الرّجال كلُّهم على نَقْل الصُّنْدوق إلى البُقْعة المنشودة، فلما بلغوها رمى «جاك» نظرةً فاحصةً إلى الصخور القائمة هناك، وفَتَحَ عُلْبة الأدوات التي أتى بها، وأخذ يحكُّ بعض الصُّخور ويزيل عنها قشرتها لعله يصلُ بعد الطبقة الأولى والثانية إلى طبيعة الصخر الأصيلة، فيرى أهي من الدَّهْنَج أم من تافه الصخر، ولكنه لم يفز بطائل من ذلك الاختبار فأيقن أن الدهنج لابد أن يكون في جوف الصخور، وأن الطبقات المتراكمة عليه من السوائل البُرْكانية أو من عناصر الطبيعة الأخرى لا شكَّ قد حجبت المعدنّ الأصيل، فوزع الديناميت على عدّة أماكن مختلفة من عاتي الصخور والهضاب، ووصل كلَّ كميَّة منه بفتيلة طويلة، وأخذ يُشْعل رأس كلّ فتيلة ويبتعد عنها هو ورجاله إلى أقصى ما يمكن، فيدوي على الأثر صوتُ انفجار هائل يمزّق أجواز الفضاء، ويرمي بفُتات الصخور متناثرةً في كل جهة.

وكان «جاك» يسارع بعد كلّ انفجار إلى المكان المتفتِّت، يبحث عن الدَّهْنَج فلا يَعثر له على أثر، فيأمر رجاله بأن يدخلوا إلى نهاية التجويف الذي استحدثه الانفجار، وأن يأتوه بقِطَع من الصخر يقدُّونها من جَوْف المكان، فيفعلوا فينكبّ على الفحص والبحث والاستقصاء، فلا يجد شيئًا مما صوّره له الوهم وهكذا دواليك...

فجمع رجاله يائسًا قانطًا وقال لهم:

– «لقد أخفقتُ فيما جئتُ من أجله يا رجال... لقد توهَّمْت أنِّي



مُلاقٍ في هذه البُقْعة منجمًا من الدَّهْنج، وهو ضربٌ من الألماس الرخيص، أو ملاقٍ فيها منجمًا من حجارة الكبريت فخاب فألي... أمّا هذه القطعِ الصغيرةِ من الدَّهْنَج التي نراها منثورة هنا وهناك، فلا تُغْني فتيلاً، فوجُودُها هنا من باب الاتفاق ثم إن استخراجها يكلف أضعاف ثمنها... فإلى السفينة!»

وعادَ الرجالُ إلى القاربَيْن، ولم ليتقوا في أثناء طريقهم إليهما بأحدٍ من سكان القرية البعيدة، فإن دويَّ الديناميت جعلهم يَقْبَعُون في دُورهم مخافة أن تصيبهم رشاشةٌ منه.

وركِب البحارة القاربَيْن، وضربوا الماء بالمجاديف حتى وصلوا إلى السفينة، فأقلع بها «جاك» على الفور تحزُّ في صدره الآلام، ويقوم في نفسه كرهٌ بغيضٌ لهذه الحياة الجوفاء التي سيحياها. لقد كان قريبًا من السعادة وكاد يمسك بتلابيبها فإذا هي تفِرُّ منه إلى غير رَجْعة.

وتمهل «جاك» في العودة فليس هناك هدفٌ يسعى إليه، وشرع يعرِّج بالسفينة على كل شاطئ وميناء، فينزل إلى المدينة ويقضي بها ليلةً صاخبة، فإذا عرَضَ له خيالُ «ماري ريشارد» قامت ثائرته وقعدت، ولَعَنَ الدهرَ الغدارَ على أن فرّق بينه وبين الحبيب.

وقبل أن يبلغ ميناء «سان بريوك» بعدّة أيّام، كانت السيدة «دوبريف» مجتمعة بوكيل أعمالها فسألته:

– «هل من جديدٍ في مسألة السندات؟» فقال:

– «لا جديد... إننا في الانتظار، فلو استعجلنا الأمر لطلبوا منا ضعف الثمن». فقالت:

– «يجب علينا أن نعرف أولاً ما قيمةُ تلك المناجم وما نفقاتُ استغلالها... هل عاد الرسولُ الذي أوفدته إلى هناك؟» فقال:

– «إنه لا يزال في الميناء ينتظر سفينةً قاصدةً إلى تلك الجهة النائية». فقالت:

– «إن تأخره بغيضٌ خطر». فقال:

– «وأيُّ خطرٍ فيه؟» فقالت:

– «إذا علم خصومُنا بالنتيجة قبلنا سبقونا...» فقال:

– «قد يكونُ ذلك ولكن ما العمل؟» فقالت مُحْنَقة:

– «سأنهي به إليك عندما أنجحُ فيه».

وفي اليوم الذي وصل فيه «جاك» إلى «سان بريوك» كانت السيدة «دوبريفْ» في المدينة، فتقصّت أخبار «جاك» فعلمتْ أنه قد رجع من رحلته منذ لحظات، وأنه في أحد المطاعم يتناولُ طعامه، فقصدته واقتربتْ منه وقالت:

– «السيّد «جاك»؟»

اضطرب «جاك» لسماعه ذلك الصوت، فرفع رأسَه فلقى السيدة «دوبريف» فنهض يحيِّيها وهو يقول في نفسه: لم تأت هذه السيدة إلى

هذا المكان حبًّا لسواد عينيَّ، فلابد أن يكون الدهْنَج هو الذي دفعها إليه فقال لها:

- «أكنت تبحثين عنِّي يا سيدتي؟ لا أكذب القول أنِّي ما كنت أتوقَّع زيارتك بعد الذي جرى بيننا في لقائنا الأخير. انظري إلى ملابسي تُوقني أنِّي كنتُ صادقًا عندما أخبرتك بأني عائد إلى العمل في السفن».

فابتسمت السيدة وقالت:

- «إن هذه المدينة صغيرةٌ، والأنباء فيها لا تخفى، فليس العملُ على ظهر السفن هو الذي حداك إلى الرحيل عنها والعودة إليها». فقال متهكمًا:

- «إن حركاتي وسَكَناتي تهمك إذن يا سيدتي!» فقالت:

- «عرضتُ عليك عوني فرفضت، ولا يزال في الوقت سعة حتى تقبل». فقال:

- «ألستِ أنتِ يا سيدتي التي أوعزتِ إلى وكيل أعمالك بأن يهتمَّ بمناجم «إسلندة» فنشط إلى عرقلة أعمالي؟ أوَلستِ أنت الآن في هذا المكان تساعدينه فيما يبتغي، وتحاولين أن تقفي مني على ما عندي من أخبارٍ عنها؟» فقالت:

- «ظُنَّ ما شئتَ، وقدِّرْ ما تريد، فإن رغبت في أن أنضم إليك فحدِّثْني عن حقيقة هذه المناجم فإنك عائدٌ منها».

ورأى «جاك» أن من المروءة أن يكونَ صريحًا في أقواله فأجابها قائلاً:

– «لقد خُدِعْتُ يا سيّدتي... ليس في هذه المناجم شئ من الدَّهْنَج يستحقّ الذكر، فاستخراج النَّثير منه يكلف فوق ثمنه».

فضحكت السيدة «دوبريفْ» وقالت:

– «تقولُ لي هذا حتى أحمل وكيل أعمالي على أن يسحب العرض الذي عرضه على وارثة المكتتب الوحيد، وحتى يخلو لك الجوّ فتظفر بالسندات والأسهم بثمنٍ بَخْس».

عزّ على «جاك» أن تعتقد السيدة «دوبريف» أنه يكذب عليها، فأراد أن يؤكد لها صدق ما قال، ولكن السيدة كانت قد نهضت منصرفة وقصدت إلى مكتب البريد والبرق وأرسلت إلى وكيل أعمالها البرقية الآتية:

«مناجم غنيَّة. اجتهدْ في شراء جميع السّندات والأسهم. دوبريف».





١٠

بقيتْ «ماري ريشارد» ذاهلةً ساهمةً بضع دقائق بعد انصراف «جاك»، ثم رجعت إلى نفسها واستعرضت ما مرّ عليها من حوادث، وحاولت أن تربطَ بعضها إلى بعض، وأن تجدَ لكلٍّ منها تفسيرًا.

لقد عُرِضَ عليها مبلغٌ كبيرٌ من المال ثمنًا لأوراق لا قيمة لها، فسُرَّتْ بالعرض وأَخبرتْ به «جاك» فتجهَّم وجهه وضاقت نفسه. ترى لماذا؟ ألِعِلْمِه أنها ابنة الرجل الذي تسبّب أبوه في خرابه؟ أكان يجهل ذلك حتى اطَّلع عليه من الرسالتين اللتين أقرأته إيَّاهما؟ لا. ليس هذا السبب الحقيقي. فليس أبوها الذي كان سبب نكبة أبيه، فلماذا إذن أبْغَضها

فجأةً وكَرِهَها؟ ألأنه اضطَرّ إلى هِجْرانها وفقد سعادته؟ كلا. فهذا سببٌ لا يعقل أبدًا. ألأنها آثرتْ عرضًا أسخى من عرض صديقه «بطرس»؟ وهذا أيضًا سبب مضحكٌ سخيف.

وعلى مثل هذه الأسئلة والأجوبة قضت الفتاة بعض الوقت جاهدة في الوصول بأفكارها إلى سبب قويّ سليم يفسر لها رحيل «جاك» فما أمدّها تفكيرها بشئ ترتاح إليه.

ثم دار بخلدها واجبها البنويّ نحو أبيها، فما وجدته سببًا يحملُها على بغض «جاك» الرجل القويّ الذكيّ الوافر المروءة، الكريمٍ الخلق...

وذهبت في اليوم التالي إلى مكتب السيد «بطرس» نزولاً عند نصيحة «جاك» ووعدها إياه باتباعها، فاستقبلها على الفور فقالت له:

– «في الوقت الذي تلقَّيت فيه عرضك يا سيِّدي لشراء سندات مناجم الكبريت، تلقَّيْتُ عرضًا آخر أعلى ثمنًا، فقبل أن أقرر شيئًا في الموضوع، أتيتك مستشيرةً، مُلَبِّيَة في ذلك نصيحة صديق لك هو السيِّد «جاك أفريل» جاري في المنزل الذي أسكنه». فقال «بطرس»:

– «أنصحك يا آنسة أن لا تبيعي هذه السندات في الحال... علمتُ أنه عثِرَ في تلك المناجم على موادّ قد تكونُ ثمينة، ولقد تسرَّب الخبر إلى رجال المال فارتفعت أسعارُ سنداتك وأسهمك، فمن مصلحتك التريث والانتظار».

فقالت:

- «وكيف عَلِمَ الناس بالعثور على تلك الموادّ التي قد تكون ثمينة؟» فقال «بطرس»:

- «لست أدري يا آنسة». فقالت:

- «لا بأس». ثم سكتت قليلاً واستأنفت حديثها قائلة:

- «أليس السيد «جاك أفريل» هو الذي طلب إليك أن تعرض عليّ شراء السندات بثلاثة آلاف من الفرنكات؟»

فسكت «بطرس» ولم يجب فاستأنفت الفتاة قائلة:

- «لقد تقابلنا يوم السبت وفهمتُ ممّا رواه لي أن العرض هو صاحبه». فقال «بطرس»:

- «ما كنتُ لأكتم أمرًا أخبرك هو به!»

ولم يدر في خاطر «بطرس» أنه وقع في الشَّرك الذي نصبته له الفتاة وأنه أفضى إليها بما كانت تريد أن تعرف، فتابعت تحقيقها وقالت سائلة:

- «لقد عاد إلى «سان بريوك» أليس كذلك يا سيّدي؟»

فلم يجد «بطرس» أيّ ضررٍ في الردّ بالإيجاب.

وانصرفت الفتاة مسرورةً من نجاح حيلتها. فقد استقرَّ في ذهنها الآن لماذا هجرها «جاك» فقالت في نفسها: لابد أنه كان قد كشف سرّ المناجم فجاء إلى «باريس» باحثًا عن أوراق تلك المناجم ليستأثر

بها كلها بثمن زهيد... يا لَهُ من رجلٍ كريم النفس والخلق! فلمَّا عَرفَ أن هناك قومًا يزايدونه في الثمن، هرب إلى «سان بريوك» ليُخْمد الموضوع، أو يستعدّ له استعدادًا جديدًا، فقد يكون ذهب إليها باحثًا عن مالٍ يستقرضه ويعود به شاريًا...

وثبت هذا الرأي الأخير في ذهن الفتاة عندات تلقت بعد أيام عرضًا جاءها من مدينة «سان بريوك» يطلب صاحبه إليها أن تحدد ثمن ماً تمتلك من سندات وكان مصدر العرض هو السيد «هارفر» فقد قال في نفسه إن الحديث المتَّصل، والعُروض المتواترة، سوف ترفع لا شكَّ الثمن، وفي ذلك فائدة محقَّقة للفتاة.

فلمَّا علمت «ماري ريشارد» أن العرض واردٌ لها من مدينة «سان بريوك» أبتْ أن تحدِّد للسندات ثمنًا.

ومضت الأيام على تلك الحال إلى اليوم الذي تلقى فيه وكيل أعمال السيّدة «دوبريف» برقيتها من «سان بريوك»، فكتب في الحال إلى الآنسة «ماري ريشارد» يطلب منها تحديد الثمن، فذهبت بالرسالة إلى السيد «بطرس» ولما لم يكن قد تسلم برقية من «جاك» فقد أراد أن يماطل ويتعنت، فأوعز إلى الفتاة أن تطلب ضعف الثمن الأصلي لكل سند، فقبلت وجاءه الردّ برجوع البريد مصحوبًا بصكّ قيمته تسعون ألف فرنك، فما وسع «بطرس» إلا القبول، فلما استدعى الفتاة

إليه في اليوم التالي، قدَّمَ إليها الصك وهو يقول:

– «لقد ارتكبتُ حماقةً سيلومني عليها «جاك» كل اللوم»: فقالت:

– «وما شأنُ السيد «جاك» والمسألة؟» فقال:

– «هو الذي أوصاني في أن أنصحك بأن لا تبيعي السندات... فقد كان من الممكن أن يزداد ثمنها ارتفاعًا». فقالت:

– «أرادَ ولا شكَّ أن يكسب الوقت ويجمع الأموال ليوافيني بعرض جديد عن يد رجلٍ رابع!» فقال:

– «ماذا تقولين يا آنسة؟ كيف تتوهمين أن «جاك» خليقٌ بمثل هذا العمل؟ إنك تجهلينه كل الجهل... وهَبِيه شاء ذلك فمن أين يجيء بالمال؟» فقالت:

– «ظننته غنيًّا». فقال:

– «لا يملك في الحياة غيرَ راتبه...»

وعَمَدَ «بطرس» إلى كتابة وثيقة البيع، فوقَّعت عليها الفتاة وسلَّمها الصك على وعْدٍ منها أن تبعث إليها بالسندات.

وكَثُرَ المالُ في يد «ماري ريشارد» بعد الضيق الذي لازمها منذ وفاة والدها، فأهابتْ بها دواعي الأنوثة فخفَّت إلى حوانيت الملابس والأزياء، فابتاعتْ منها ما شاءتْ أن تبتاع، وفي تلك الغَمْرة من فرح

الأنوثة وحمَّى الشِّراء، جاءتها رسالةٌ من «بطرس» يرجها منها أن تعرج عليه في مكتبه، فذهبتْ إليه متبرجة متأنقة حسنة الزيّ والهندام، وبادرته قائلة وهي تبتسم:

– «أنبأ سار أيضًا يا سيد «بطرس»؟» فقال:

– «كلاَّ وا أسفاه!... لقد تلقيتُ أنباء من مناجم «إسلندة». إنها خاليةٌ من الدَّهْنَج». فقالت:

– «وهل أستطيعُ أن أعرفَ اسم الذي وافاكَ بهذه الأنباء؟» فقال:

– «ما إخالُني أملكُ حقَّ البوحِ باسمه». فقالت:

– «أمَّا أنا فأملك حقَّ حَزْرِه... إنه السيد «جاك أفريل» أليس كذلك؟ لا تُنكر يا سيدي؟ أنا واثقة بأنه هو... فاعلم أني لا أصدِّقُ حرفًا مما تقول... تلك طريقته... لقد فاتَتْه السندات فهو يسعى الآن للحصُول على الأسهم، فعَمَد إلى إشاعة هذه الأنباء الكاذبة، ولكنني لن أبيعَ الأسهم بأيّ ثمن كان..»

فاستغرق «بطرس» في الضحك وقال:

– «يا له من رأيٍ ثاقب... نعم إن التَّقرير من «جاك» وما هو بتقرير، إنه برقية وصلتْ إليَّ متأخرة يومين عن اليوم الذي تلقيت فيه الصكّ من مشتري سنداتك يا آنسة... لقد طلب إليّ في تلك البرقيّة أن أسعى في بيع أوراقِك، فلولا الضجة التي أثارها لما ظفرتِ بتسعين

ألفًا من الفرنكات... وأمس تلقَّيت منه رسالة يخبرني فيها بأن لا وجود للدَّهْنَج في تلك المناجم». فقالت:

– «ومن يدريني أنه يقولُ الصِّدْق؟» فاكفهَرَّ وجه «بطرس» وقال:

– «لا أحدَ. لقد أوصاني «جاك» أن أبلِّغك نتيجة بحثه ولقد فعلت... فمهمَّتي قد انتهت...»

وشعرت الفتاة أن «بطرس» يطلب منها الانصراف فلم تبالِ أمْرهُ وقالت بلهجةٍ حُلوةٍ متوسِّلة:

– «أترغبُ يا سيد «بطرس» في أن تُطْلِعَني على رسالته؟ أتوسَّلَ إليك يا سيدي أن تطلعني عليها؟»

تردَّد «بطرس» لحظة ثم قال في نفسه: وما المانع؟ فقدّم للفتاة البرقية أولاً ثم الرسالة. فقرأت في البرقية: «تخلَّص ممَّ عندك. تحياتي. جاك» ثم قرأت الرسالة فإذا «جاك» يصف فيها رحلته ويختمها بقوله:

«ها أنا ذا أعودُ صفر اليدين... إن الشئ القليل من الدَّهْنَج قد تفتت مع نثار الحجارة... لقد حلمتُ حلمًا جميلاً وها هو ذا قد اضمحلَّ... قابل الآنسة ر. وانْصَحْها ببيعِ سَنَدَاتها وأسهمها، أما حصصُ التأسيس التي أملكها فارْم بها إلى النار». فقالت الفتاة:

– «وأيَّة حصص تأسيس هذه؟» فقال «بطرس»:

– «لقد كنت ظفرت بها تنفيذًا لأمره».

ثم قام إلى خزانة في المكتب، وأخرج منها حصص التأسيس، وقدمها إلى الفتاة. فقالت له:

– «ماذا كنتَ تفعل بهذه الأوراق لو كان عُثر على الدَّهْنَج؟ فقال:

– «طلب» «جاك» مني أن أهديها إليك».

فجفَلت الفتاة وعادتْ إلى قراءة بقية الرسالة فإذا فيها ما يأتي:

«فإذا قابلتَها يا صديقي القديم، فاكتبْ إليّ، وأخبرني عن حاله وهل يتردَّد ذكري على لسانها. إني أفكِّرُ في أول لقاء لنا. لقد صحبتُها إلى مكتبك لتسأل شريكك عن عنوان السيد «إدمون» ثم تلاقينا غيرة مرَّة. استشارتني في بيع أسهمها وسنداتها وما كنتُ أعلم حتى اللحظة التي استشارتني فيها أنها المالكة لتلك الأوراق. أتذكر كيف أردتَ أن تذكرَ لي يومًا اسمهما فقلتُ لك: لا أريد أن أرجعَ بذاكرتي إلى وفاة أبيها... أشعرُ الآن أنها المرأة الوحيدة في حياتي وستظلُّ على البعد المرأة الوحيدة في حياتي البائسة. اكتب إليّ.

صديقك إلى الأبد – جاك»

«حاشية: أرجو أن لا تقولَ لها أي شأنٍ كان لي في هذه المسألة».

انتهت الفتاة من القراءة فأجهشت بالبكاء، ثم استعادت على الفَوْر رباطة جأشها ونهضت مودعة وقالت:

– «إني شاكرةٌ لك جزيلَ الشكر يا سيّد «بطرس»».

فابتسم «بطرس» ومدّ لها يده مصافحًا فصافحته، وحاولت هي أيضًا أن تبتسم ولكنَّ شفتيها لم تنفرجا إلا عن بسمةٍ حزينة، فودّعته وانصرفت.

عادت إلى منزلها واستلْقت إلى سريرها فكان خيال «جاك» لا يفارقها.

أدركتْ أنها تحبُّه بل إنها أحبَّتْه منذ اللحظة الأولى...

حان ميعادُ الغداء فلم تفارق الفتاةُ غرفتها، فهُرِعَتْ إليها صاحبةُ المنزل لتستوضح أمرها فرأتها دامعةَ العينين فقالت لها:

– «مِمّ تشكين يا عزيزتي؟ ولماذا تبكين؟»

فما أجابتها الفتاةُ بغيرِ العويل والنحيب، فتركتها صاحبةُ المنزل تنفِّسُ عن صدرها بالبكاء حتى إذا هدأت ثائرتُها تبسَّمت وقالت:

– «سأسافر في هذا المساء». فقالت صاحبة المنزل:

– «إلى أين؟» فقالت:

– «إلى «سان بريوك».» فقالت صاحبة المنزل:

– «إذا قابلْتِ السيد «جاك» فبلِّغيه تحيَّاتي».

فلم تجب «ماري» بل ذهبت مع صاحبة المنزل تتناول طعام الغداء.

وفي المساء استقلَّت القطار إلى «سان بريوك» فوصلت إليها في صباح اليوم

التالي ومضت توّا إلى السيد «هارفر» وقالت له:

– «أودُّ يا سيدي أن أقابل في الحال السيد «جاك».» فقال «هارفر»:

– «إنه ليس في «سان بريوك» يا آنسة». فقالت جازعة خائفة:

– «هل ركبَ البحر إلى غايةٍ من الغايات؟» فقال يبُثُّ في رَوْعها الاطمئنان:

– «كلا يا آنسة وإنما هو في بعض الضواحي يتسلَّمُ مقدارَ الصيد الجديد فقد يعود عند الظهر».

فتنفَّست الفتاةُ الصُّعَداء، وحدّق «هارفر» فيها طويلاً وقال:

– «ألست يا آنسة صاحبةَ الأوراق الإسلندية؟» فقالت:

– «نعم يا سيِّدي». فقال:

– «إذن أسمح لنفسي بأن أسألك ماذا تريدين من «جاك» فهو رجلٌ من رجالي». فقالت:

– «إنها مسألة شخصيّة يا سيّدي... إنني...» فقاطعها «هارفر» قائلاً:

– «ولكن تفضَّلي بالجلوس يا آنسة فعندي ما أحدثك به».

فأطاعت الفتاة، وجلست على أحد المقاعد، وبقى «هارفر» يَذْرَعُ الغرفة ذاهبًا آيبًا ثم قال:

– «أتعرفين «جاك» يا آنسة منذ زمنٍ طويل؟» فقالت:

– «منذ نحو شهر». فقال:

– «قضى منها خمسةَ عشرَ يومًا بعيدًا منك، أتعرفين إلى أين ذهب؟» فقالت:

– «نعم إلى «إسلندة»». فقال:

– «ومَنْ قالت لك ذلك؟» فقالت:

– «صديقه «بطرس»». فقال:

– «أرى من واجبي إذن يا آنسة أن أحذرك من «جاك».

فتطلَّعت إليه مغيظةً محنقة، فاستأنف هو حديثه وقال:

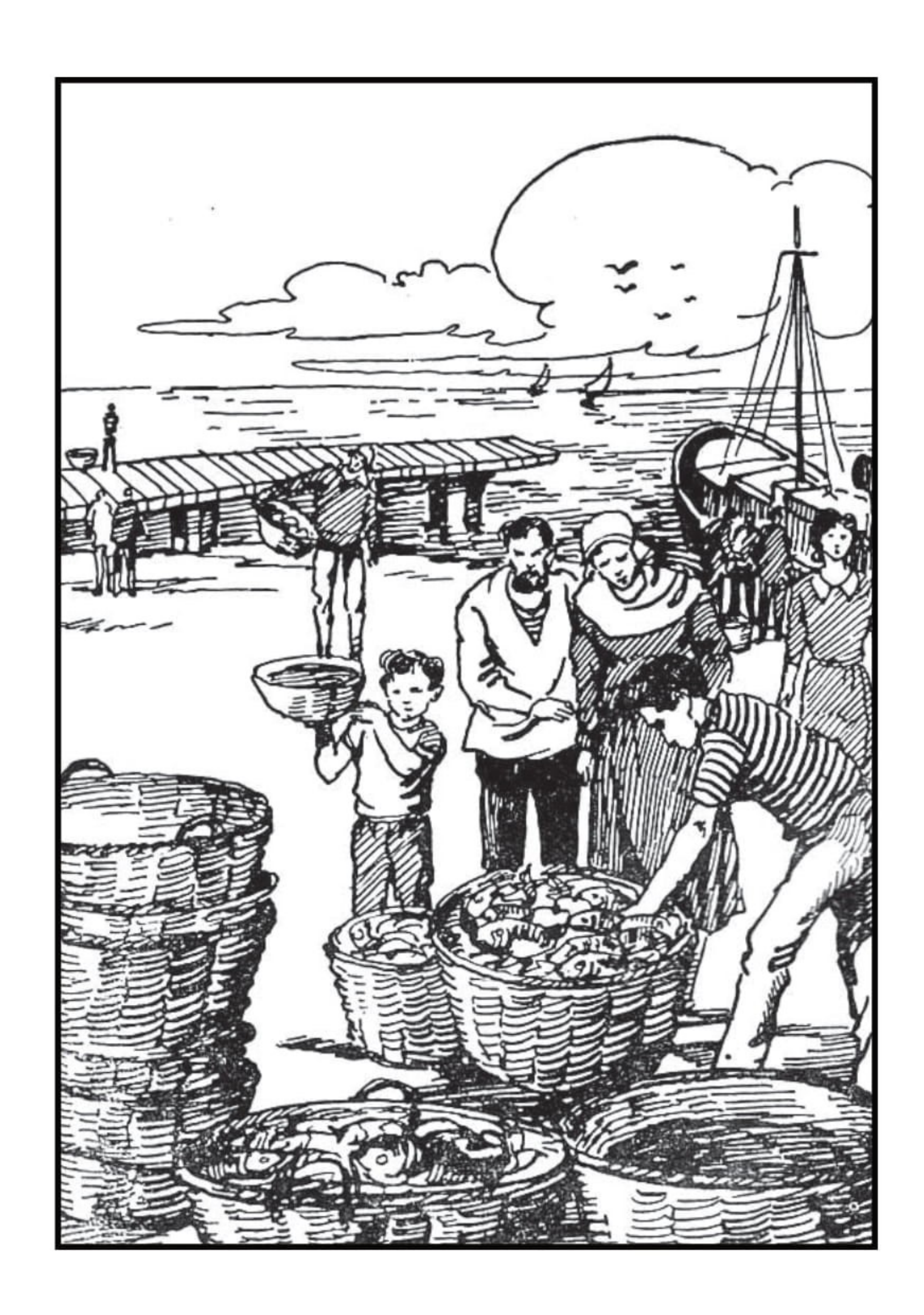
– «نعم إنه رجلٌ فظٌ غليظ، إنه قرصانٌ مخيف فما من بحارٍ من البحَّارة لا يرتجف منه رعبًا وذُعْرًا».

فنهضت الفتاة عن مقعدها ثائرة وقالت:

– «وأنت... لا أريدُ أن أنعتك... تغتابه وتسبُّه... اعلم أنه رجلٌ كاملُ الصفات... ولسوف أتزوَّجه ولو كان وَحْشًا ضاريًا... إني أكرهك يا سيِّدي».

فانطلق «هارفر» يقهقه ضاحكًا وقال:

– «سامحيني يا آنسة، نحن الرجال نحبُّ المزاح... إنك ستكونين



خير زوجةٍ له. هيَّ بنا».

ولم تُفِق الفتاةُ من دهشتها إلا عندما ركبت هى و«هارفر» الترام إلى حيث كان «جاك» فرَوَى لها في أثناء الطريق كل ما يعرف من شأنِها وشأنِ الأوراق المالية التي في حَوْزتها. فلمَّا وصل بهما الترام إلى المكان المقصود، ترجَّلا وودّع «هارفر» الفتاة ودلَّها على الموضع الذي يعمل فيه «جاك»، فسارعت إليه فرأته واقفًا في وسط جماعة من الرجال والنساء، يضعون السمك في أقفاص كبيرة، ومن حولهم أكوامٌ من السمك من كل صنف ونوع، ثم رأت في يده دفترًا يسجّل فيه عَدَدَ الأقفاص فوق كل مركبة قبل أن تسير إلى محطة سكة الحديد. فأهابت الفتاةُ بشجاعتها، ومرّت من بين الأقفاص حتى اقتربت منه وهو مديرٌ ظهره إليها، فلمست كَتِفَه.

فالتفتَ فرآها، فَسَرَتْ في جسده رعدةٌ خفيفة تغلَّب عليها وقال في غِلْظة:

– «ماذا تريدين يا آنسة؟» فقالت:

– «أنْ أقولَ لك كلمة واحدة». فقال وهو لا ينقطعُ عن مراقبةِ الرجال والنساء الذين يعبِّئون السمك:

– «وما هى؟» فقالت:

– «بعتُ سنداتي». فقال:

– «أبعتِ السندات فقط؟ ولماذا لم تبيعي الأسهم؟» فقالت:

– «لم أحاول ذلك». فقال:

– «وكم قبضتِ ثمنَ السندات؟» فقالت:

– «تسعين ألف فرنك». فقال وقد خُطَّت على شفتيه ابتسامةٌ خفيفة:

– «حسن جدًّا».

ثم سكت وسكتت، وتابع هو عمله في مراقبة العاملين، فقطعت الفتاة الصمت الرهيب وقالت:

– «أنفقتُ منْها خمسة آلاف». فقال:

– «حسن». فقالت:

– «اشتريتُ بها ملابس لعُرْسي فإنني سأتزوَّج».

فلم يجب في هذه المرة بشئ بل لزم الصمت فقالت له:

– «ألا تريد أن تعرف من الزوج الذي اخترتُه؟» فقال:

– «لا يهمّني ذلك».

فأمسكتْ بذراعيه، واقتربت منه، ووضعت رأسها على كَتِفِه، فنظر إليها فرأى شفتيها مفترَّتَيْنِ عن ابتسامةٍ حلوة جميلة، ورأى عينيها

شاخصتين إليه وهما مبللّتان بالدموع، وسمع صوتَها يقول له بلهجةٍ عذبة كلُّها رقّةٌ وحُبٌّ وحنان:

– «هل تَرْضى أن أكون عروسَك يا «جاك أفريل»؟»



رقم الإيداع	١٩٨٥/١٩٩٩	
الترقيم الدولي	977-02-5734-6	ISBN

٧/٩٨/٧٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



دار المعارف